حافة الفردوس

الرواية الحائزة لجائزة الدولة التشجيعية عام ٨٤



نبيل عبد الحميد



حافة الفردوس

الحائزة لجائزة الدولة التشجيعية
في الرواية لعام ١٩٨٤!

نبيل عبد الحميد

لوحة الغلاف للفنان : محمد الطلاوي
الرسوم الداخلية للفنان : محمود القاضي

الطبعة العربية الثانية : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥٠٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-061-6



السلسلة الأدبية

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية
خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : محمد الغليونى

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

نبيل عبد الحميد

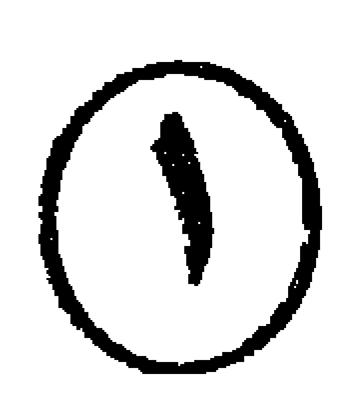
حافة الفردوس

روايــــــة

الحائزة لجائزة الدولة التشجيعية
في الرواية لعام ١٩٨٤

الطبعة الثانية ١٩٩٨







جسر الغمام يزحف قريبا من الأرض ، كتلا تتدافع وتتداخل وتتلوى ، أشباحا أسطورية تتمدد أطرافها ، كهوفا وسراديب تزم أفواهها وتعتصر جوفها .

صفير الهواء يأتى من بعيد ويهز الأشجار ، ويرتطم بالجدران ، ويخلع أوتاد الخيام ، ويقلب المناضد والمقاعد ، ويسوق الرمال والأوانى والأكواب والزجاجات ولعب الأطفال وقطع الملابس والكتب القديمة والعصى والقبعات والأحذية وأطواق الزهور المضفورة .

المنضدة الكبيرة تهتز ، أطراف مفرشها الأبيض تتطاير ، فوقها كتاب كبير وصليب من المعدن المطعم وعصا سوداء لها رأس كروى لامع.

أرجل المنضدة تتأرجح وتدق الأرض ، وسطحها يميل ويعتدل . وينزلق الكتاب والصليب وتقع العصا على الأرض، وتتدحرج .

الكلب الصغير الأبيض ينظر إليها ويزوم . يرخى أذنيه ويتراجع بخلفيتيه ، يرفع أنفه ويتشمم الهواء ، يقفز من فوق ساق ويقفز من فوق صدر ويجرى ، تتهدل شعيراته البيضاء .

المنضدة الكبيرة تسقط ، ترتطم حافتها بأنف مشرع ، وتتكسر عظمته فى صوت مكتوم . المفرش يشتبك بالوتد وتظل أطرافه تتلوى وتصفع الهواء . الحقيبة الجلدية تنقلب وتتبعثر منها رزم الأوراق المالية ، تتطاير ..

الكلب يمد أنفه ويتشمم لحية طويلة بيضاء ، يتشمم أذنين وعنقا، يلعق يدا ويزوم ، يتلفت ويرخى ذيله ، يدفعه الهواء فيرقد ويدس رأسه تحت الإبط ويغمض عينيه ..

يتردد صوت رفيع بداخل البرميل ، ينسكب واهنا ويتطاير مع الهواء.

- ماما .. بابا

تمتد اليدان المتسختان بالتراب وبالدم ، الأصابع تنفرد وتتقلص وتبحث ، تتشبث بظهر مقعد وتتحامل عليه . ويرتفع الوجه قليلا وتنفرج العينان والشفتان ويتقاطر الدم على الأرض ، الفم يلهث والملامح موحلة متشققة . الصدر يزحف ببطء ، ويتمدد وينقبض ، ويتأوه ، ويرتفع فى تثاقل متشنج ، وترمش العينان .. يخرج الصوت مكلوما من بين النواجز المرتعدة .

- أين وجهك القذر !؟

المقعد ينقلب ويرتطم الصدر والوجه بالأرض .

أوراق الشجر تتطاير وحبال الخيام تشتد وترتخى . يدفع الكلب رأسه تحت الكتف وينبش الأرض بقدميه .

الصوت الرفيع يبكى خائفا

- ماما .. بابا

يرفع الكلب رأسه ويشرع أذنيه وينبح . يعلو صوت الدق على جدران البرميل . يقف الكلب ويتشمم الهواء وينبح . ويقفز من فوق رأس ويطأ بطنا وذراعا ووجها وعنقا ، ويجرى ناحية البرميل ، يدور حوله وينبح .يقف على مؤخرتيه ويخمش جدران البرميل بمخالبه وينبح . والصوت الرفيع يصرخ .

- ماما .. بابا

أوراق الشجر تتساقط داخل البرميل .

تنبش اليدان المتسختان الأرض وتعتصر التراب ، وتتسع بقعة الدم تحت الوجه . زجاجة تتدحرج وترتطم بالجيتار ، يتردد صوت غليظ. يتعلق الكلب بحافة البرميل ويحاول أن ينظر إلى الداخل . البرميل يمتلئ بصراخ الطفل ونباح الكلب . جدران الخيام تنتفخ وتنضغط ويقع مصباح على الأرض ويتهشم زجاجه .

الطفل يمد يديه ويحاول أن يتعلق بحافة البرميل أو بفم الكلب . القدمان الصغيرتان تضربان قاع البرميل وتحطمان الحصان الخشبى الصغير ، الكلب يجرى ويدخل إحدى الخيام ويتشمم الأشياء ويعود ويدور حول البرميل ، يقفز ويتعلق بحافته ويدخل رأسه ، ويقفز الطفل ويداه ممدودتان إلى أعلى ، ويقفز مرة ثانية ، وثالثة ، البرميل يهتز ويميل ويرتمى على الأرض . الكلب يبتعد قليلا ورأس الطفل يرتطم ويصيح ويبكى .

اليدان المتسختان تتعلقان بحبل الخيمة وتجذبانه إلى أسفل ، ويرتفع الرأس والصدر إلى أعلى ، الصوت المتحشرج يتساقط واهنا .

– لن أموت .. قبل أن .. أفقأ عينيك .. وأقطع لسانك .. لا .. لن أدعك هذه المرة .. لن .. آه ...

الوتد ينخلع وتميل الخيمة . يقوم الطفل ويضع يديه على وجهه ويبكى ، والكلب يتعلق بملابسه ويهز ذيله ويزوم . يلعق رقبته وأذنه . تمشى القدمان الصغيرتان وتتعثران بالأشياء وتقعان وتقومان ، شعر الفتاة الجميلة يتطاير ويلتف حول ساقيه .

صوت النهنهة يتلاحق وتتخاطفه الأنفاس المبتورة

– أريد ماما .. أريد بابا

الكلب يجرى ويقفز ويتشمم الوجوه والسيقان والأيدى ويزوم ، والطفل يدخل الخيمة وينظر إلى الأشياء ، ويضع يده على السرير وينادى ويبكى ، ويدخل الخيمة المجاورة والكلب يأتى ويتمسح به وينكس رأسه ، يمسكه من رقبته ويقول :

– أين ماما .. ؟ أين بابا .. ؟

الكلب يهز ذيله ويلعق وجه الطفل ورقبته ويجرى خارج الخيمة ، والطفل يجرى وراءه . يجلس عند رأس الحصان ويتحسس وجهه ويفتح عينيه وينظر إليها ، يشد أذنه ، ويفتح فمه ويقرب أصبعه من أسنانه الكبيرة ويضحك ويقول :

– الحصان نائم على الأرض

يركب على رقبته ويهز رجليه . يقوم ويجرى .. يرى وجه الرجل الطويل ، يندفع ويرتمى على صدره ، ويضع يديه على خديه ويتباكى ..

– بابا ، البرميل أوقعنى .. بابا ، أريد أن آكل .

يهز الرأس ويفتح العين وينظر فيها ويفتح الفم ويضرب الكتفين . يقوم ويركب على صدر المرأة الطويلة ويجذب ثيابها .

- ماما ، أريد أن ألعب بالكرة

يشدها ويهزها وتتساقط دموعه عليها

- بابا نائم ، وأنت نائمة ، وأنا أريد أن آكل وأن ألعب بالكرة .. ماما .. ماما

الكلب يجلس ويضع رأسه بين رجليه وينظر . الطفل يقرب وجهه من وجه المرأة ، شمعى الملامح مزموم الشفاه ، يضع فمه على الأذن ويصيح:

- قومى يا ماما

يضع فمه على أذن الرجل الطويل ويصيح

- قم يا بابا

يبكى ويضرب الأرض بقدميه . يد الرجل الطويل قابضة على يد المرأة الطويلة ، الأصابع متشابكة ومتجمدة .

اليدان المتسختان تزحفان ناحيةالبندقية . جسر الغمام يتصدع وينفث دخانا فضيا ، تتسرب منه ندف الجليد وتهوى إلى الأرض . الطفل يرفع يديه الصغيرتين وينظر إلى الكلب ويصيح .

- قم نلعب مع الجليد

الكلب يقف وينتفض وينبح . الطفل يجرى بين الأجساد المبعثرة ويضحك . يدوس بطن الجيتار بقدمه الصغيرة ، وينقطع الوترالأخير ويحدث صوتا مبتورا . والكلب يجرى وراءه ويهز ذيله . ندف الجليد تذوب وتنزلق على الوجوه الشمعية وتدخل الأنوف والأفواه والآذان

وتنحدر على الرقاب وتتسرب إلى الصدور والظهور وبين الأرجل . البرق يحدث تشققات خاطفة فى السماء . الطفل يرفع رأسه وينظر ويفتح فمه ، والكلب يجرى ويدخل الخيمة .

اليدان المتسختان تمسكان بمؤخرة البندقية ، الأصابع تتمدد وتتقلص وترتعد ، وفوهةالبندقية ترتفع إلى أعلى .

قطرات الدماء تذوب فى الماء وتنحدرعلى الأرض . الطفل يدفع الأجساد بيديه ويضربها برجليه ويصيح

- قوموا .. الجليد يسقط عليكم

الأصابع المرتعدة تقترب من زناد البندقية ، تحيط به ، الفوهة تهتز وينفجر الصوت وينطلق صارخا بين الخيام والأشجار والأشياء . ويرتمى الرأس بين الذراعين ، وتقع البندقية وترتطم به .

الصوت يتحشرج فى الحلق

- وغد .. ليتنى أقتلك .. ليتـ .. نى .. ل .. ى .. ت ...

الطفل يتلفت وينادى على الكلب ، يجرى ويتعثر بالأجساد ويقع ، ويقف ، يرتمى على صدر الأب العظيم ، يهزه بيديه الصغيرتين ويصيح :

- قم يا أبانا ... أنا خائف يا أبانا

جسد الأب العظيم ممدد إلى جوار المنضدة المقلوبة ، وأطراف ثوبه المزركش تتطاير . يد الطفل الصغيرة تنفض الجليد عن وجهه . العينان مسبلتان والأنف الكبير يبدو مكسورا ، أو ملتويا إلى أسفل . ألفم منفرج قليلا والشفتان منتفختان ومتشققتان . شعيرات اللحية الطويلة تتطاير فوق الصدر العريض . صفير الهواء يتدافع بين الأشجار . ضلفتا البوابة الكبيرة

تنفتحان وتنغلقان . تحدثان صوتا حادا رتيبا .

يقف الطفل على جسد الأب العظيم ، ويتلفت . تاج الأب العظيم ينزلق عن رأسه ، ينخلع منه ويدور ، ويتقلب ، ويتدحرج إلى داخل الخيمة . الطفل يجرى ويرتمى بين جسدى الرجل الطويل والمرأة الطويلة ، ويمسكهما بكلتا يديه ، ويحاول أن يخفى رأسه الصغير بينهما .

الكلب يتشمم البندقية ، واليدين المستختين ، والوجه ، والعنق ، وينبح .. يعود ويتمدد إلى جوار الطفل ، ويضع رأسه فوق رأسه ، ويغمض عينيه ، يرتفع صوت ارتطام حبات المطر بقماش الخيام ، وبالوجوه ، وبالأشياء ، وبالأرض ..

يقترب صوت الأقدام ، تركض ، وتحيط بالمكان ...

تنظر عين الطفل فى عين الكلب ..

وتنظر عين الكلب فى عين الطفل ..







خرج الأب العظيم من الخيمة ونظر إلى السماء . مد ذراعيه إلى أعلى وشهق نفسا طويلا ، تمدد صدره العريض وهو يمتلئ بالهواء البارد . تلفت . تطلع إلى الفتى الجميل وكان منحنيا على جيتاره ، يشد أوتاره ويضبط أنغامها . تقاطرت خطواته فى هدوء ناحيته ، وضع يده على كتفه وابتسم . نظر الفتى الجميل إليه وابتسم ..

قال الأب العظيم فى هيام :

- الموسيقى لغة الأرواح

أومأ الفتى الجميل برأسه وهو يداعب الأوتار بأصابعه . أخذ الأب العظيم الجيتار ونقر على ظهره بأصبعه بينما ينصت إلى صوت الخشب ، داعب الأوتار بأنامله وقال

- جيتار جيد

قال الفتى الجميل :

- جيتار أبى .

ناوله الأب العظيم الجيتار وقال :

- أهو الذى علمك العزف ؟

طأطأ الفتى الجميل رأسه

- مات وأنا طفل . وبعد مدة طويلة أخبرونى بأنه كان عازفا ماهرا .

أغمض الأب العظيم عينيه وظل صامتا .. قال بصوت رخيم

- أجنحة الملائكة ، ترفرف فى سماء الرب ... ألا تسمع الأنغام ؟

انتبه الفتى الجميل

- أسمع ماذا ؟

- صوت الرفيف

- تطلع الفتى الجميل ناحية السماء بعينين متسعتين

- لا أسمع شيئا

توردت ملامح الأب العظيم واهتزت لحيته ، خرج الصوت من جوفه ثقيلا

- لأنك لم تقترب بعد . !

بدت الدهشة على وجه الفتى الجميل

- أقترب من ماذا ؟

اختلجت شفتا الأب العظيم ، واتسعت فتحتا أنفه وهو يتنفس

- قريبا تصل ، وعندما تصل .. ستسمع ، وستفرح ، وستبوح لك

الأنغام بأسرارها .. وستعزف لحنا جماعيا لا ينتهى .
حدق الفتى الجميل فى شفتى الأب العظيم
- كيف يا أبانا ؟
انفرجت الشفتان الكبيرتان فى بطء
--حين تخلع عنك هذا الجسد المتعفن ، تنطلق روحك إلى أعلى .
تحسس الفتى الجميل جسده ، وظل صامتا ، فاغر الفم
- كن رقيقا وكن طيعا وأنت تقهره . لا تخف ولا تتردد ، سيأخذونك برفق ، برفق ، ويضمونك فى حنان . ثم يبدأ العزف الذى بدأ منذ الأزل ، ولا ينتهى إلى الأبد
ردد الفتى الجميل فى همس مندهش
- بدأ منذ الأزل ، ولا ينتهى إلى الأبد ؟!
- إنه الإنشاد المقدس ، تعزفه الأرواح الطاهرة بأجنحتها البيضاء .
تلفت الفتى الجميل حوله
- لا أسمع شيئا ، يبدو أننى ..
وضع الأب العظيم يده على كتف الفتى الجميل وابتسم
- لا تتعجل ، قريبا ستكون من أمهر العازفين
التمعت عينا الفتى الجميل
- أمهر العازفين ؟
ونكس رأسه وأردف بصوت منخفض
- ولكنى عزفت لهم كثيراً وقالوا لا فائدة
- دعك من أقوالهم

- توسلت وبكيت لهم لكي يعلموني ، ولكنهم ضحكوا وقالوا ، ليس هناك بادرة أمل ، أنت لا تصلح ، أنت لاشيء!

أمسك الأب العظيم بيد الفتى الجميل وهزها

- ليس بهذه اليد يكون العزف

احتارت نظرات الفتى الجميل

- كيف يا أبانا ؟

- تخلص من سطوتها عليك ، وعندئذ تجد نفسك من أمهر العازفين

نظر الفتى الجميل إلى يده ، وحرك أصابعها

- ليتني أستطيع حقا يا أبانا

ظل وجه الأب العظيم ساهما ، يرتشف أطراف الاشجار بعينين نديتين .. همس بصوت رخيم

- ما مقام الضارب على آلة ذات وتر واحد أمام الذى يأمر جميع الآلات وجميع الأوتار فتطيعه ، فقد اجتمع فى صوته ضحك الرعود ، ودموع الأمطار ، ورقص الرياح والأشجار (١) .

ابتسم الفتى الجميل وتنهد

- لتطمئن يا بنى ، كلنا جئنا لكى نغتسل ، ولكى نتخلص من آثامنا ..

قال الفتى الجميل :

- يبدو أنك تجيد العزف يا أبانا

هز الأب العظيم رأسه فى رتابة وقال

- العزف الجيد يحتاج إلى مزيد من الصدق ومزيد من الانفعال ، والصدق والانفعال لابد أن يتحركا من الداخل . الخشب والأوتار

---

(١) يسوع ابن الانسان - جبران خليل جبران ص ٣٥٧

والأصابع مجرد أدوات ، أما الموسيقى الراقية فإنها تتدفق من الداخل .

- حقا يا أبانا ، أننى أشعر بها فى داخلى

- أنت فنان يا بنى . والفنان لابد أن يتحرر من آلامه وأحزانه . لا ينظر أبدا إلى الخلف ، لأن أحدا لا يستطيع أن يساعده .

زم الفتى الجميل شفتيه وأومأ برأسه ، بسط الأب العظيم كفيه وهامت نظرته إلى بعيد ..

- أنت جزء من هذه الطبيعة الجميلة التى تحيط بنا . أنت حر تماما فى أن تعزف لبشر أو لشجر أو لطير أو لحيوان . لا تتوقف عن العزف يا بنى فكل الأشياء هنا تتعاطف معك ، وتحتضنك ، وتغمرك بأفراحها ، وتكشف لك عن أسرارها .. تعزف معك وترتقى بك إلى آفاق لم تكن لتبلغها مهما درست وتعلمت .

انتشت ملامح الفتى الجميل وهو ينظر إلى الأشجار وإلى العشب وإلى السماء . ضم الأب العظيم يديه إلى صدره وضغط عليه .

- هناك ، يرتوى داخلك من نبع الفن الحقيقى . وهناك ، لا يكون لك داخل وخارج . بل طيف يسبح فى رحابة الوجود ، يتشرب أنغاما ، ويشع أنغاما ... ولكنها ليست أبدا ما عرف البشر من أنغام .

تألقت عينا الفتى الجميل وقال :

- ليتنى أستطيع .

نادت بصوت متواثب وهى تندفع خارج الخيمة . ركضت ناحيتهما . تطلعت إلى الأب العظيم والتمعت عيناها اللوزيتان . تهادت يد الأب العظيم وهى تنزلق على شعرها الطويل الناعم . تأمل توهج الملامح النضرة، وبدت عيناه تحوم حولها .. همس فى مجون .

- الرحم .. الحياة .. الفناء فى الخلود .

أضاءت ابتسامتها وانتشى بروز صدرها

- ماذا يا أبانا ؟

سالت نظراته متهادية على جسدها، وتجمعت عند قدميها. قال:

- صنعة الرب تهدى إلى فيض محبته .

انحسرت نظرة الفتاة الجميلة عن وجه الأب العظيم. قال بصوت متردد:

- أريد أن أريك شيئا .

تساءل الأب العظيم فى رفق :

- وما هو ؟

أمسكت بيده الكبيرة وحاولت أن تقربها من شفتيها وهى تهمس :

- لقد أضأت لى طريق الإلهام .

هز الأب العظيم رأسه وابتسم :

- أنوار الرب تضيء كل الطرق يا ابنتى .

- تعال ، أريد أن أريك ما رسمت .

نظر الأب إلى الفتى الجميل وقال :

- وهل رآه ؟

ضحكت وهزت كتفيها

- يقول إنه جيد ، ولكنى أريد أن تراه بنفسك .

وضع الأب كفيه على كتفيها ونظر فى عينيها

- أعرف أنك فنانة موهوبة ، وأن هذه اليد ستصنع أعمالا رائعة .

نظرت الفتاة الجميلة إلى يدها وهمست :

- لم أكن أتصور أن تنطلق من قيدها بهذه السرعة ، لقد حررتها ، أصبحت لا أتحكم فيها وهى تنساب بالفرشاة ، وهى تمزج الألوان ، وتعبث بالخيال ، وتطوع الواقع ، وتخلقهما روحا نابضة على قماش اللوحة .

ابتسم الأب العظيم وقال :

- تتكلمين جيدا يا ابنتى ، يبدو أن نور الرب يسعى إليك .

قال الفتى الجميل :

- إنها تريد أن نبقى هنا .

رفع الأب العظيم يديه وتطلع إلى السماء ، قال بصوت مهيب .

- الأرض أرض الرب ، والهواء هواء الرب ، والطعام طعام الرب .

صاحت الفتاة الجميلة وهى تقفز وتصفق بيديها

- أحقا يمكننا أن نبقى هنا ؟

أحاطهما بذراعيه الكبيرتين

- كل من يدخل هنا .. يبقى

اتسعت ملامح الفتى الجميل

- كل من يدخل يبقى !؟

مشى الأب العظيم بهما وهو يهز رأسه

- أرض هذا المكان تقيد كل قدم تطؤها .

- كيف يا أبانا ؟

تطلع الأب العظيم إلى الأشجار وإلى الخيام وإلى الربوة الخضراء

- هنا يجد الإنسان نفسه .

نظر الفتى الجميل إلى الفتاة الجميلة .. رفع الأب العظيم قبضته

واعتصرها . تنهد وأغمض عينيه .

وعاد صوته ينثال فى نعومة

- وحينئذ يرى ما لايرى الناس ، ويسمع ما لا يسمعون

وظلت شفتاه تلهجان بهمهمات متقطعة .. همس الفتى الجميل

- يبدوأننى لم أكن أعرف شيئا .

انتبه الأب العظم ونظر إليه وابتسم

- ما زلنا فى بداية الطريق يا بنى .

صاحت الفتاة الجميلة بصوت ناعم

- هيا إلى الخيمة ، أريدك أن ترى .

نظر الأب العظيم إلى عينيهـا، وإلى خديها، وإلى شفتيـها، وإلى عنقها، وإلى صدرها .. وإليها .. ورفع يديه إلى السماء وقال بصوت دافئ .

- منة الرب .. نبع لا يجف ، وظمأ لا يروى .

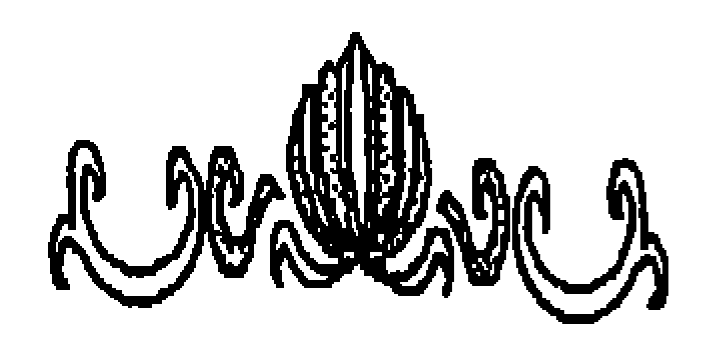
ضحكت وجرت ناحية الخيمة وهو يلاحقها بعينين تلتمعان . التفت إلى الفتى الجميل وقال :

- لا تنس المحاولة . اعزف للشجر وللطير وللحيوان ..

واتسعت خطواته ناحية الخيمة .

تطلعت إليه المرأة العجوز وهى تعتصر ثوبا بين يديها المعروقتين .. قالت بصوت متكسر

- ألا تكف أبدا ؟!







جرى الكلب الأبيض بين صفوف المقاعد ، وارتمى بين رجلى الطفل وهو يلهث. جلس الطفل على الأرض واحتضن رأس الكلب وظل ينظر إلى لسانه الأحمر .

كان الأب العظيم واقفا إلى جوارالمنضدة ، عيناه مغمضتان وشفتاه تلهجان بهمس مبحوح . حمل الصليب بين يديه وأدناه من شفتيه وقبله . نكسوا رءوسهم ورسموا إشارة الصليب على صدورهم وهم يهمسون بصوت منخفض . وضع الصليب برفق ومد ذراعيه وتتطلع إلى السماء .

ابتسم الفتى الجميل للفتاة الجميلة ووضع يده عليها ، همست قريبا من أذنه وهى تضغط على يده.. انتفض الكلب الأبيض وجرى ، وقام الطفل وجرى خلفه .

التفت الرجل الطويل ناحيته وقال :



- هل أكل طعامه ؟

تنهدت المرأة وقالت :

- أكله غصبا .

حـامت نظرة الأب العظيم فـوق الرءوس ، تهادت على الوجـوه ، وبدأ صوته الخافت يتضح تدريجيا

- أبنائى أحباب الرب ..

اقتربوا .. هيا تعالوا إلى أحضانى .. تعالوا إلى صدر أبيكم ..

ادخلوا ولا تترددوا فإنه يتسع لكم جميعا ..

دعونا نتماسك بالأيدى وبالقلوب ..

دعونا نتعانق بالأرواح ..

دعونا نطرد بقايا الخطيئة من داخلنا ..

ولنجلس معا فى ظل زيتونتنا وننتظر مشيئة الرب ..

تطلعوا إليه وانتبهوا ، فلوح بذراعه الكبيرة وقال :

- أقول لكم إن الأزمة تنتظرنا هناك . تحيط بنا من كل جانب ، تبـتغى لـنـا آلاما مـبـرحـة ، تتكـالب علينــا لكـى تطـردنـا بعـيـدا عن ساحة الرب..

ولكن .. ولتكن النصيحة لى قبلكم ..

أمسك العصـا ، وضـع يـده عـلى الكـتاب . أسبل عينيه وقال بصوت عميق :

- «ولكن احـذروا من الناس لأنهم سيـسلمـونكم إلى مـجـالس وفى مـجامـعهم يجـلدونكم ، وتساقـون أمام ولاة ومـلوك من أجل شهـادة لهم

وللأمم . فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون ، لأنكم تعطون فى تلك الساعة ما تتكلمون به ، لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم ، وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من أجل اسمى . ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» [1]

ترك العصا ، وبسط كفيه أمام الوجوه

- كنا نعيش أحرارا فى أرض الرب ..

وكنا نطعم مما يطعمون ، ونلبس مما يلبسون ..

لم نزرع لهم حقدا ، ولم نقطع عنهم رزقا ..

ولكنهم مضغونا ولفظونا .. سحقونا بماديتهم وجهلهم ..

أرادوا منا الجسد ...

فأدخلونا فى التجربة ، مع الجسد ومع الروح ..

وها نحن نستمتع بآلام الجسد، ونصلى بأرواحنا للرب، مالك الخلاص..

رفع قبضته إلى أعلى ، وتلونت ملامحه

- ألا فاعلموا أن أجسادهم ترتعد من أبسط الآلام ..

وأن أرواحهم الشريرة ترتع مبتهجة فى تلك الأجساد القذرة ، المملوءة بالبرق والرعد والفزع ..

إن ملاك الرب يرفرف بجناحيه فوق أرضنا الصغيرة هذه ، يحميها ويرعاها ..

أسبل عينيه ، وضم كفيه إلى صدره . هز رأسه وابتسم

(١) إنجيل متى ١٠ : ١٧ - ٢٢ .

- أقول لكم ، إنهم لن يصلوا إلينا مهما فعلوا ..
ولن ينالوا من أجسادنا أبدا ..
ليكن لهم ما يريدون بقوتهم ..
وليكن لنا ما نريد بقوتنا ..
وأطرق الأب العظيم .. وسكت ..
تهامس رجلان بصوت مبحوح
- كيف أبعدهم بالأمس ؟
- لا أعرف
- رأيت الجنود يقفون هناك ، فلم لا يكونون قد جاءوا من أجلى أنا ؟
- سمعت الضابط يصيح ، ورأيته يلوح للأب العظيم مطالبا بإخلاء المنطقة وتفريقنا ولو بالقوة ، ثم دخلا الخيمة .
قربت امرأة رأسها منهما وقالت :
- لقد طردهم كما فعل من قبل ، ورأيتهم يرحلون .
نظر إلى أنفها المدبب وقال :
- ومن ذا الذى يجرؤ على مواجهة الأب العظيم ؟
وهز الآخر رأسه الأصلع وقال فى خشوع :
- إنه الأب العظيم .. العظيم ... ولكن من هم ؟
وعاد صوت الأب العظيم يتردد ، بطيئا ، ناعما
- لنعد أنفسنا للرحيل الذى نتشوق إليه ، ويتشوق إلينا ..
إن يد الرب تمتد إلينا ..
تدعونا أن نخلع عنا أوعيتنا الصدئة المثقوبة ..

أن نتحرر من عبوديتنا ، وننطلق إلى ساحة الرب
إلى حيث النعيم الأبدى ..
إننا أرواح طاهرة نقية ..
وإنهم جثث يملؤها العفن والبغض ..
أسند كفيه إلى المنضدة وقال فى تهكم :
- يقولون ، اتركوا هذه الأرض وتفرقوا ..
ويقولون ، كفوا ألسنتكم وأقلامكم عن نشر دعوتكم ..
وأقول لهم ، إن كانت لديكم الشجاعة الكافية ، ألا فتطلعوا إلى أعيننا جيدا ..
ولعلكم ترون ما لم تقدروا على فهمه ..
ولعلكم تجدون الإجابات عن أسئلة تأكل صدوركم .
ظل الأب العظيم يتصفح الوجوه الشاخصة بنظرة وديعة .. تمدد صدره العريض وهو يقول بصوت خشن :
- لماذا تركنا الأهل والمال والسلطان ؟
لماذا اعتزلنا حياتهم وفررنا إلى هذا المكان ؟
لماذا يتزايد عددنا ، وتخضر أرضنا الصغيرة وتظللها أشجارالمحبة ؟
لماذا لا نتألم كما يتألمون ، ونفرح كما يفرحون ؟
ولكنهم لم ينظروا .. ولكنهم لم يفهموا ..
الآن .. وقد حدثت القطيعة ، أقول لكم يا أبنائى أحباب الرب ..
لابد أن ندبر أمرنا ، وأن نتخذ قرارنا بأنفسنا ..
وسكت الأب العظيم ، وظل ساهما يتطلع إلى الربوة وهو

يتنفس بعمق.

اعتصرت المرأة الخفيفة عينيها المحمرتين وهى تلهج

- رحماك به يا رب

ربتت جارتها على ظهرها، وهمست والدموع تتساقط على خديها :

- اهدئى يا أختاه . إنه منة السماء إلينا ، يجب أن نستمع لما يقول .

طأطأت رأسها وقالت بصوت تتخاطفه الشهقات :

- أخاف عليه من غدرهم . أنت لا تعرفين ما فعل من أجلى . رأيت الموت بعينى . ولكنه وضع يده على رأسى وسكب القطرات فى فمى ... شفيت بعدها . بعدها مباشرة . ولم أعد مريضة . أتسمعين ؟ لم أعد مريضة.

وانتفضت المرأة الخفيفة واقفة ، وظلت تضرب صدرها بكلتا يديها، وتشد شعرها ، وتصرخ بصوت يموج فى جوفها :

- لم أعد مريضة . رحماك به يارب .

تطلع الأب إليها وهز رأسه . جذبتها جارتها وأجلستها ووضعت يدها على فمها .

أمسك الأب العظيم العصا بكلتا يديه وضمها إلى صدره ، اعتصرتها أصابعه .. رفع بصره إلى السماء وظلت شفتاه الكبيرتان تلهجان . انتفض وقال بصوت مهيب :

- الرب يهب الحياة .. الرب يهب الرحيل ..

تحرك ناحية المرأة وقال :

- كاد المرض يفتك بأختكم . ولكن يد الرب امتدت إليها .. وها هى

تعيش بيننا .

هرولت المرأة الخفيفة ناحية الأب العظيم وتعلقت بيده وظلت تقبلها وهى تبكى وتتشنج .

انفرجت أفواههم ، واتسعت عيونهم ، ودار الهمس بينهم .

عاد الأب العظيم إلى المنضدة .. تابع كلامه بصوت يميل إلى الحدة ..

- كنت أقف على هذه الربوة وأتلفت ، فأرى عيون الأفاعى تترصدنا ، حمراء مشتعلة .. وأرى سياط ألسنتهم تسعى إلينا ، رفيعة مسلوخة ..

وزعقت فى وجه السماء بصوتنا جميعا ، وتوسلت ، وبكيت ...

وهاجت السماء يا أبنائى . قصف الرعد . وتطاير البرق .. وتصادمت كتل الغمام .. وهطل المطر ..

وجلست تحت الشجرة أغتسل بماء الرب ..

ورأيتكم يا أبنائى تحيطون بى وتغتسلون معى ..

فرحين ، ترفرف عليكم أجنحة بيضاء ..

وحملق الأب العظيم فى وجوههم ، وتنهد

- أنتم أنقياء كبحر من نور . أطهار كنهر من لبن ..

فدعونا نبغض كل ما لنا قبل أن نبدأ الطريق ..

دعونا نحتمل مزيدا من الألم حتى تكتسب أرواحنا مزيدا من الشفافية..

دعونا نسير معا ، متماسكين ..

ورفع الكتاب بكلتا يديه

- «**وكان جموع كثيرة سائرين معه فالتفت وقال لهم .. إن كان أحد لا**

يأتى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا .. ومن لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذا»[1] .

تحسس الكتاب ، وضعه في هدوء على المنضدة .

– تأكدوا يا أبنائي أن رحمة الرب تغمرنا ، وتأخذنا إليه ..

فكلنا أتينا طائعين ..

كلنا قاسينا وتألمنا حتى نصفى أنفسنا من شوائبها .. وحتى نرتقى درجات الأمجاد السماوية ..

كلنا كافحنا وصبرنا حتى نصرف الأشرارعنا ..

الآن يا أبنائى ، وقد ارتضيت لكم ما إرتضيته لنفسى ، أرى أن الطريق الذى اخترته طريق حتمى ..

وبدأ يفكر بعمق وهو يدور حول المنضدة بخطوات ثقيلة .. قال:

– أعرف أننا عانينا كثيرا ونحن ننتقل من مكان إلى مكان ..

وتألمنا كثيرا ونحن نروض أرواحنا ، ونكبح جماح أنفسنا الشريرة الآثمة..

أعرف أن الرحلة كانت مضنية ، خاصة للمفكرين منكم ..

ولكن التجربة الروحية أثبتت لنا جميعا أن أهل الفكر يعجَزون تماما عن إدراك الحقيقة الخفية ورؤية الأنوار السماوية ، إذا هم أسلموا القياد إلى سلطان العقل المجرد ..

ضغط على المنضدة ، وحملق فيهم

– إننا الآن يا أولادى ننظر إلى أهل الأرض من مكان لا يمكن أن ترتقيه

---

(١) لوقا ١٤ : ٢٥ – ٢٧ .

قدم .. أو تصل إليه يد ..

أو ينال منه سلاح قذر ..

إننا أسمى من عالمهم المحسوس، بما فيه من تطاحن وغدر وحقد .

وأن عيوننا التي تسبح في بحر النور الرباني ، لتختلف كل الاختلاف عن عيونهم التي ينظرون بها إلى أشيائهم الزائفة ....

إننا نرتقي إلى عالمنا .. وإنهم يهبطون إلى عالمهم ...

أمسك العصا وظل يلهج بصوت خافت ، توقف فجأة، وبدا ينصت إلى أشياء تقترب من السماء . بدت ملامحه محمومة ومبللة بالعرق ، ارتعدت أصابعه فوق الكتاب .

- أغمضوا عيونكم يا أبنائي ..

تخلصوا من صفاتكم الإنسانية، فإنها أكثف حجاب بين العبد والرب ..

دعونا نغلق كل الأبواب ونصلي بأرواحنا البيضاء ..

الحق كل شئ ، وما عداه لا شيء .. وليس موجودا ، وليس محسوسا ..

لتكن غايتنا قدس الأقداس ، وأنوار الفيض والأشراق ..

دعونا نلتقي بالرب ..

نتحد معه ، كما يتحد الماء واللبن ، والنار والحديد ..

ضم يديه إلى صدره ، وتمايل جذعه في حركات رتيبة ، وبدت ملامحه تجاهد انفعالا متدفقا .

- أبنائي أحباب الرب ... أنتم فيه .. وهو فيكم ..

أنوار القلوب تشع وترتقي.. تملأ الأكوان.. تدخل في أنواره القدسية ..

ارتعد جسده . حاول أن يستند إلى المنضدة . اتسعت عيناه وتلاحقت

أنفاسه الخشنة .

- لا تتحركوا ... أنصتوا جيدا .. إنه نداء السماء .. يأتى من بعيد .. ويتدفق فى صدورنا ..

إنى أسمعه .. ألا تسمعونه ؟

إنى أشعر به يملأ صدرى .. ويملأ صدوركم ...

الرب يفيض علينا يا أبنائى .. لم نعد نحن ما كنا ..

إننا نسبح ونصلى .. بلا حدود .. وبلا صوت ..

هرول رجل وامرأة ناحيته ، وأسنداه قبل أن يرتمى على الأرض . جففا عرقه ودلكا كفيه فى حرص وخوف . هدأت أنفاسه وتماسك . ابتسم لهما وضمهما إلى صدره .

تحاملت المرأة العجوز على ظهر مقعدها ، وقالت بصوت متكسر النبرات :

- وماذا تريد منهم أن يفعلوا ؟

التفت الأب العظيم ناحيتها .. قال فى وداعة :

- نفكر معا .. ونتخذ القرار معا

ضحكت بصوت رفيع ، وقالت وهى تهتز وتلوح بيدها

- أى قرار .. هه .. أى قرار ؟

نظر فى عينيها وهو يبسط يده العريضة فى مواجهتها

- اهدئى يا أختاه . اجلسى وسترين

اتسعت نظرته واحتوت كل الوجوه الساهمة . ردد فى هوادة :

- لا أعتقد أن بيننا ضعيفا أو منهزما . أنعطيهم الفرصة لكى يعيدوا

الأغلال إلى أعناقنا ؟

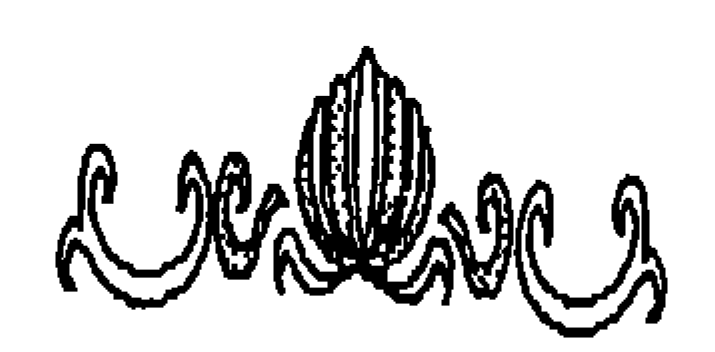
تكلموا يا أبنائى ..

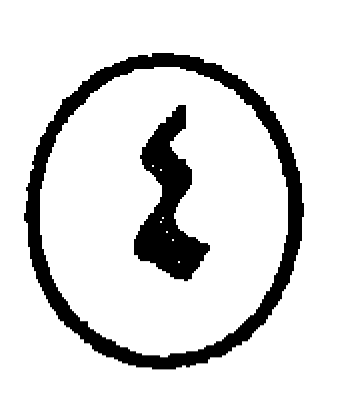
هزوا رءوسهم فى استنكار ، وتسرب الهمس بينهم .. تبادل الأب العظيم والمرأة العجوز نظرات خاطفة .. غامت ملامح وجهها ... استدارت ومشت وهى تهتز على عصاها القصيرة .

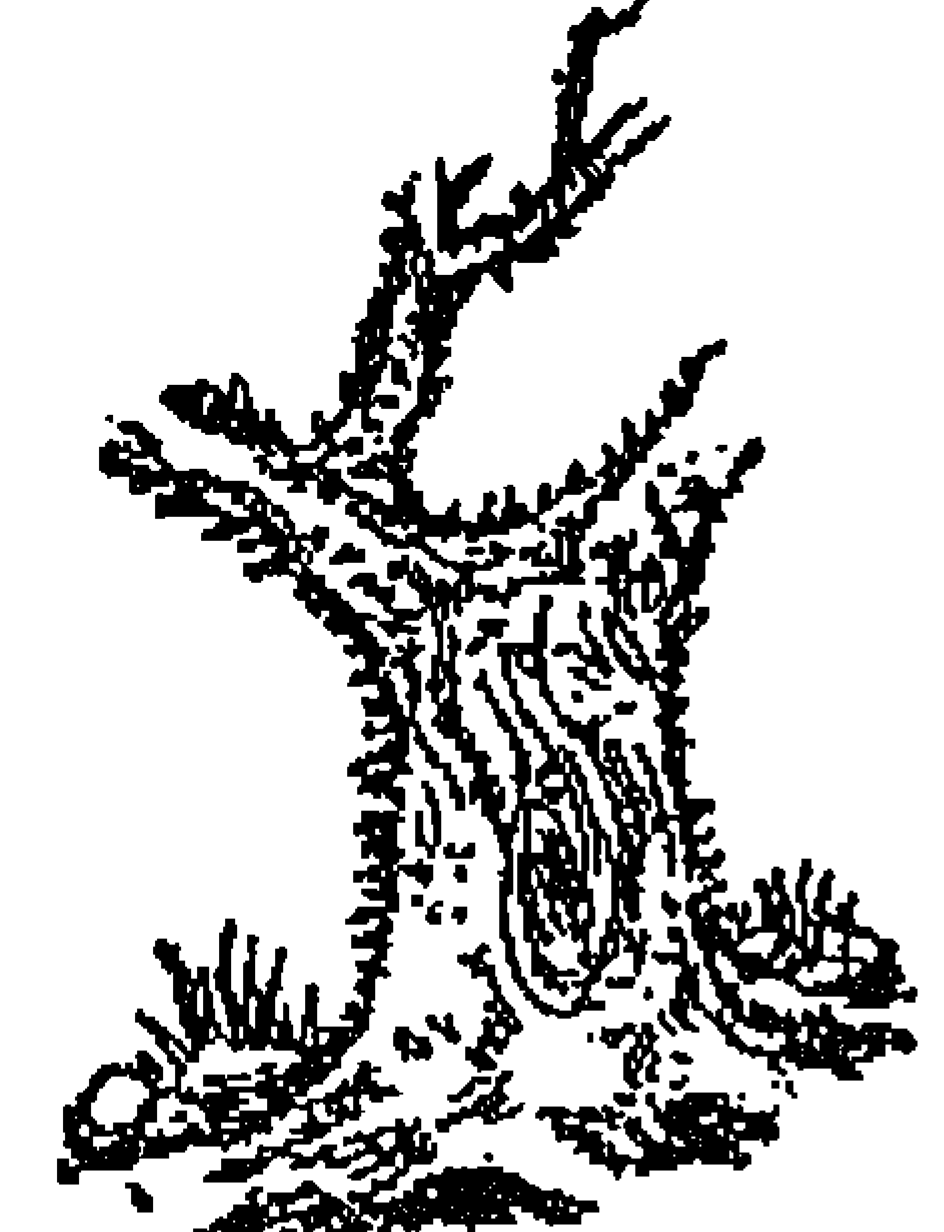
دخل الأب العظيم خيمته فى خطوات متمهلة . خرج وبين يديه صينية كبيرة عليها كؤوس تلمع . وضعها على المنضدة وقال فى حنان :

- شرابكم يا أبنائى .

حاولت أجسادهم المخدرة أن تنتصب ، وأن تتحرك ناحية الأب العظيم.







خرجا من الخيمة وارتميا على العشب وظلا يشهقان بصوت متلاحق .

الصدران العاريان يرتفعان ويهبطان ، والعيون مغلقة ، والأذرع والأرجل ممددة ..

قالت المرأة الشقراء بصوت مبحوح :

- لقد آلمتنى كثيرا هذه المرة .

تحسست أصابعه الرفيعة عظام صدره البارزة ، وهى تتمدد وتنقبض .

قال الرجل الأشقر وشفتاه ترتعدان :

- علينا أن نحاول

وضعت يدها على وجهها الشاحب

- لم أعد أحتمل

ترددت أنفاسه مع الصوت المختنق :

- لابد أن نواصل

- وأنت ؟

رمشت عينا الرجل الأشقر وهما تتطلعان إلى السماء .. ردد بصوت خافت :

- يقول الأب العظيم ، إن طموحنا إلى الأبدية يجب أن يتضاعف . وما أجسادنا إلا ذرات ضئيلة تعلق بأرض الرب ، فكيف نحرر أرواحنا قبل أن نصهر الأجساد ؟

انقلبت على بطنها ، انثنت رءوس الأعشاب الندية تحت خدها وتحت صدرها ، بدا ظهرها نحيفا مترهل الجلد تملؤه بقع النمش البرتقالية اللون.. قالت :

- ولكنى ما زلت أشعر بسطوة الجسد المتمرد

اعتمد على مرفقيه .. ونظر ناحيتها وقال :

- ما زالت إرادتك تتأرجح وفق أهواء الجسد.. ولكن لو أمكنك ..

- وهل أمكنك أنت ؟

- لقد أعاننى الرب

- ألا تشعر بالألم ؟

- لم أعد أشعر بشيء

- انكمشت ، وضغطت على صدرها بيديها . تردد صوتها يائسا

- ولكنى أريد، وأحاول، وأبذل كل ما أستطيع لكى أتحمل .. ولكن ..

- ولكن ماذا ؟

تنهدت أنفاسا صاهدة

- أخاف ، وبعد كل ما فعلت ، أن أنهزم

قال بصوت يشبه صوت الأب العظيم :

- لا ينهزم الإنسان إلا إذا أراد

- ولكنى لا أريد أن أرجع . تركت كل شئ وجئت إلى هنا .

دارت من حوله المرئيات وشحب لونها ، اسودت ، تراخى جسده وتخدر .

امتصت سيجارتها ونفخت الدخان . سعلت وتشنج صدرها ، تطلعت إلى صف الخيام بنظرة يائسة ، مكدودة .

- وماذا كنت أفعل ؟ ذهب مع عشيقته ولم يعد .. والولد تركنى وذهب أيضا .. وملأنى البرد رغم الثراء الذى كنت أدوسه بقدمى .. لم أجد من أتكلم معه .. ووجدت يد الأب العظيم تمتد إلى .. و..

وضعت يدها عليه وهزته . فتح عينيه وشهق وارتعد جسده ، ردد بصوت مختنق .

- تحدثى يا أختاه ، فالحديث يطهر الجوف

تحسست بطنها وقالت :

- ألا تريد أن تأكل ؟

- امتعضت ملامحه وقال فى ضيق :

- لم تعد بى رغبة

- ولكننا لم نأكل منذ الأمس . !

ارتعدت أصابعه الرفيعة فوق وجهه ، بدت عظامها مصفرة تحت الجلد، بلل شفتيه بطرف لسانه وقال :

- لابد أن نكبح شهوتنا .

- أتشرب شيئا إذن ؟

هز رأسه . بدت بطنه المقعرة خالية من الأمعاء . أغمضت عينيها فانحدرت دمعة سريعة على جانب وجهها .. صاحت في عصبية .

- سأذهب إليه الآن .. ألا تذهب معي ؟

نظر ناحيتها ومد يديه ، بدت آثار أصابعه على جلد وجهه .

- وماذا تريدين منه ؟

- إنني أرتعد من الخوف . ومن البرد ..

ضربت يداه الأرض في وهن

- إنها مشكلتنا مع أجسادنا .

قامت وأحضرت كوبا من عصير البرتقال وشربته وهي تدور حول جسده وتنظر إليه . لفت نصفها الأسفل بمنشفة ومشت بين الأشجار ..

رأته جالسا بجوار جذع الشجرة ورأسه منكس بين كتفيه ، ذراعاه ممدودتان ويداه مستندتان إلى ركبتيه وأصابعه تقطر دما . اقتربت . أحست بلزوجة العشب تحت قدميها . جلست ونظرت إلى أصابعه . شظايا الخشب غائرة تحت الأظافر ، أطرافها المدببة تصل إلى منابت الأظافر ، والأطراف المدلاة تنزف . وضعت يدها على كتفه وهزته . حاول أن يلتفت وأن يفتح عينيه . الملامح متهدلة ، والزرقة تحيط بالأجفان ، والزغب الأبيض يتجمع حول الفم . تباعدت أجفانه في تثاقل فلمحت بينهما شعيرات دامية وسحابات بيضاء .

اقتربت وحاولت أن تسمع الصوت ، الذي يخرج من جوفه واهنا

- ليتني أعرف إلى متى .. ليتني أعرف إلى متى ؟!

وتلاشى الصوت ، والتحمت الشفتان ، وارتفع صوت التنفس من الأنف الكبير .. همست فى فزع :

- كيف تحتمل ؟

ظل ساكنا . هزته وأبعدت أوراق الشجر عن رأسه .

- أهكذا تقتل جسدك ؟

اعتصر ظلام عينيه .. المظلة تتهادى به فى فضاء معتم .. هدير الطائرة يبتعد . البقع المضيئة تلتمع أسفله . تقترب وتتسع . أسقف البيوت وأطراف الأشجار تدنو من قدميه .

الصوت يتردد مزمجرا فى أذنيه .. اقتل كل من تجد ، الأمر واضح وصارم .. مفهوم . !

وتترشق الأرض أسفله بعيون الفزع ، والرعب ، والدهشة . تدور ، وتومض ، وتتساءل .. ويسقط بينهم . وتصم آذانه صوت الطلقات القريبة . زملاؤه يقتلون كل من يجدون . ينظر إلى العيون . تسترحمه فى توسل ، وفى براءة ..

يفتح جهاز اللاسلكى ويقول ، ولكنهم نساء وأطفال ؟

ويرتعد الجهاز فى يده ، اقتل كل من تجد ، ألم تفهم ؟

وتتجمع العيون من حوله ، وتقترب منه .. يصيح فيهم ، ابتعدوا عنى !

وتنطلق بعض الرصاصات الطائشة من مدفعه . وتنفجر بعض العيون، وترشق وجهه برذاذ الدماء الساخنة . وتقع . ويفر الباقون .

ويقذف جهاز اللاسلكى ويصرخ .. لا ..

ويوجه فوهة المدفع إلى السماء ويطلق الرصاص .. ويظل يطلق

ويصرخ .. لا .. ويمشي متهدما بين الأشجـار .. يرى العينين تحملقان فيه .. يتراجع .. تنزفان صوتا خافتا .. آه .. يقترب .. طفل يحتضن شجرة شوك، يلوذ بحمـايتها . يشـبه طفله . يمد يديه . دمـاؤه حارة . يضمـه إلى صدره . يرفرف بين أحـضانه .. ويهـمد .. وتظل عيناه تحـملقان فـيه .. تتسـعان .. تبتلعانه .. يسبح فى الدماء .. سخونتها تصهره .

صاح من جوفه :

ولكنهم نساء وأطفـال . اقتل كل من تجد .. أقـول لكم عيونهم البـريئة تسترحمنى .. اقتل كل من تجد .. أقول لكم لا .. بل فعلتها وانتهى الأمر !

اقتربت فى حذر ، لامست رأسه فأحست بنبض عروقه يخفت . تلفتت وزعقت فى ضيق :

- لا أعرف ماذا أصابكم ؟

مال بجذعه إلى أسفل . وضع أصـابعه المرتعدة على الأرض ، وضغط على الشظايا فـشقت اللحم وهرأت الشـعيرات الدمـوية وأهاجت النزف . انسلخ الصوت من الأمعاء فى شهقات متقطعة ..

- «**ويحى أنا الإنسان الشقى.. من ينقذنى..من جسدى هذا.. الموت**»[٣]

ومال الرأس إلى الصدر ، ولمع الشعر الفضى، وخفت صوت التنفس.. وسقطت ورقة جافة على العنق الأعجف

قامت ونظرت إليه . أحست بالمرارة تتجمع فى حلقها

- لابد أن أخرج من هنا !!

هرولت مبتعده . تدحرجت فوق العشب .

نهضت وجرت .. دخلت الخيمة وارتمت على الفراش وغطت وجهها .

---

(٣) روميه ٧ : ١٥ - ٢٤ .

لاحت شظايا الخشب تنزف والدم يجرى ويحيط بها . وجه زوجها يبتسم ويداه تمتدان إلى عنقها ، ووجه عشيقته يقترب من بعيد ، ويبتسم فى مكر ، وشبح ولدها يبتعد ويختفى

وأطل وجه الأب العظيم ، يشع نورا فضيا وشفتاه تلهجان ..

هنا طريق الخلاص .. تعالوا إلى صدرى يا أبنائى أحباب الرب .

انتفضت ، وخرجت من الخيمة ، وتلفتت بعيون مسعورة ، وملامح متشنجة . جرت إلى الرجل الأشقر وصاحت :

- أريد أن آكل ، وألبس ، وأرقص

ما زال ممددا .. فتح عينيه وتطلع إليها ، حاول أن يرفع يده

- يمكنك أن تعودى

ضربت الأرض بقدميها

- ولكنى جئت معك

أشاح بوجهه وتنهد فى إعياء

- جاء كل منا بإرادته

دارت حوله وهى تعتصر كفيها

- جئنا بقصد الشفاء وليس لنقتل أنفسنا

نظر إلى السماء وخرج صوته مبحوحا

- لا يهمنا الوسيلة ما دمنا سنصل إلى الغاية

صاحت فى حزم :

- أريد أن أخرج من هنا

وارتمت على صدره ، وتدفق صوت البكاء فى شهقات متخاطفة ..

تهادت يده فوق شعرها الطويل .

- البكاء شفاء

ضغطت بشفتيها المبتلتين على صدره وقالت بصوت مختنق :

- لا أريد أن أتركك . دعنا نحاول مرة أخرى

- ولكن يد الرب تمتد إلينا

هزت كتفيه فى عصبية وصاحت

- يد الرب تمتد إلى كل مكان .

حامت نظرتها عند سور السلك الشائك ، وحطت فوق البوابة الكبيرة .

داعبت ملامحها خلجات منتشية .

انتفضت ولوحت بيديها

- هيا نلعب ، ونأكل ، ونصلى أيضا ..

هيا نخرج من هنا ونبدأ من جديد

انبسطت ملامحه وهو يتبسم لها

- هنا بدايتنا

همست فى أذنه :

- لنخرج قليلا ثم نعود

أمسك يدها ووضعها على شفتيه . أحست بحرارة جوفه .

- لقد أصبحنا قطعة من هذا المكان .. روحه الطاهرة تشع بداخلنا ..

نبض حياته يدق فى عروقنا.. أيمكن أن نتركه ونسعى بأنفسنا إلى الهلاك ؟

ضربت الأرض بقدمها وظلت تعتصر يديها ، وقالت فى غيظ :

- سأعود بمفردى

همت بالجرى ، فوجئت به يقف تحت الشجرة ، يداه على صدره ، وشفتاه تتمتمان ، وعيناه مغلقتان .

تلونت ملامحها وطفرت الدموع من عينيها . تراجعت بظهرها ناحية الخيام . توقفت ووضعت يديها على وجهها .

جرت إليه وأمسكت يده بكلتا يديها وظلت تقبلها وتبكى

- أنقذنى يا أبانا العظيم

تناول الكأس وقربه من فمها

- اشربى يا ابنتى .

جثت على ركبتيها وشربت .. وضع يده على كتفها وقال بصوت هادئ :

- انظرى إلى السماء جيدا يا ابنتى فيزول الألم . ويحل الاطمئنان .

خلصى نفسك من شوائبها ، وانطلقى نظيفة إلى رحاب الرب .

شردت نظرتها بعيدا وبدا وجهها شاحبا . قال الأب العظيم :

- لا تنظرى إلى الخلف يا ابنتى .

وضعت كفيها على وجهها وغمغمت بصوت مبحوح :

- رغم ما فعلوا ، فلا أستطيع أن أنفصل عنهم .

بسط كفيه وتطلع إلى السماء

- الرب يعلمنا «تمت فيهم نبوءة أشعياء القائلة : تسمعون سمعا ولا تفهمون . ومبصرين تبصرون ولا تنظرون . لأن قلب هذا الشعب قد غلظ ، وآذانهم قد ثقل سماعها أغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم . ويرجعوا فأشفيهم» .

ثم طأطأ رأسه وتهادى صوته مشفقا :

- ماتا في حادث

انتبهت

- من ؟

- زوجك .. وصاحبته

صمتت .. غامت ملامحها .. رددت فى إعياء :

- إلى أين أذهب يا أبانا ؟

ساعدها على النهوض ، وجفف دموعها

- هنا يا ابنتى

احتارت نظرتها

- أيمكننى أن أخرج قليلا ؟

احتواها بنظرة مركزة

- العودة شاقة يا ابنتى

- كيف يا أبانا ؟

دارت خطواته لينة على العشب، اهتز رأسه فى رتابة وهو يقول :

- لأنك فى منتصف الطريق ، ولن تكون رحلة العودة بأيسر من رحلة بلوغ الهدف ..

أسندت رأسها إلى المقعد ، لملمت نظراتها وأسبلت عينيها . اقترب الأب العظيم منها وهمس :

- اشربى كأسا ونامى قليلا .. حاولى أن تقتربى أكثر

ابتعدت الخطوات المتأنية ، وتجمد الصمت فى أذنيها .. أفاقت ، تلفتت

إلى الأشياء .. احتارت نظرتها ، إلى أين تذهب ؟ سقطت القطرة الأخيرة من عينها .

أوراق صفراء تتساقط من الشجر وتتأرجح مع الهواء وتحط على العشب ..

عادت فى تخاذل إلى الرجل الأشقر ، ونظرت إلى رأسه ، وإلى صدره، وإلى بطنه ، وإلى رجليه .. جثت على ركبتيها وأغمضت عينيها وهمست :

- هيا نفعل .

لم يتحرك ، ولم يفتح عينيه .

اعتصرت يديها وصاحت :

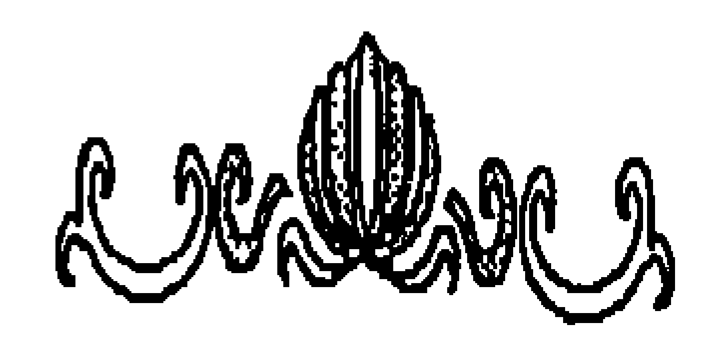
- أقول هيا نفعل ، ألا تسمعنى ؟

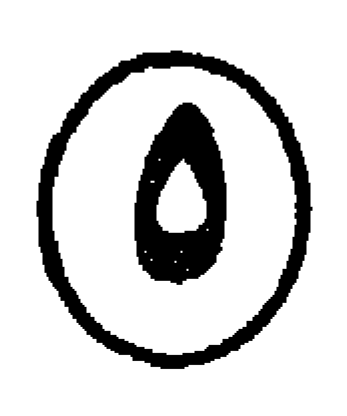
رمش بعينيه وفتح فمه..حاول أن يرفع جسده عن الأرض قليلا .

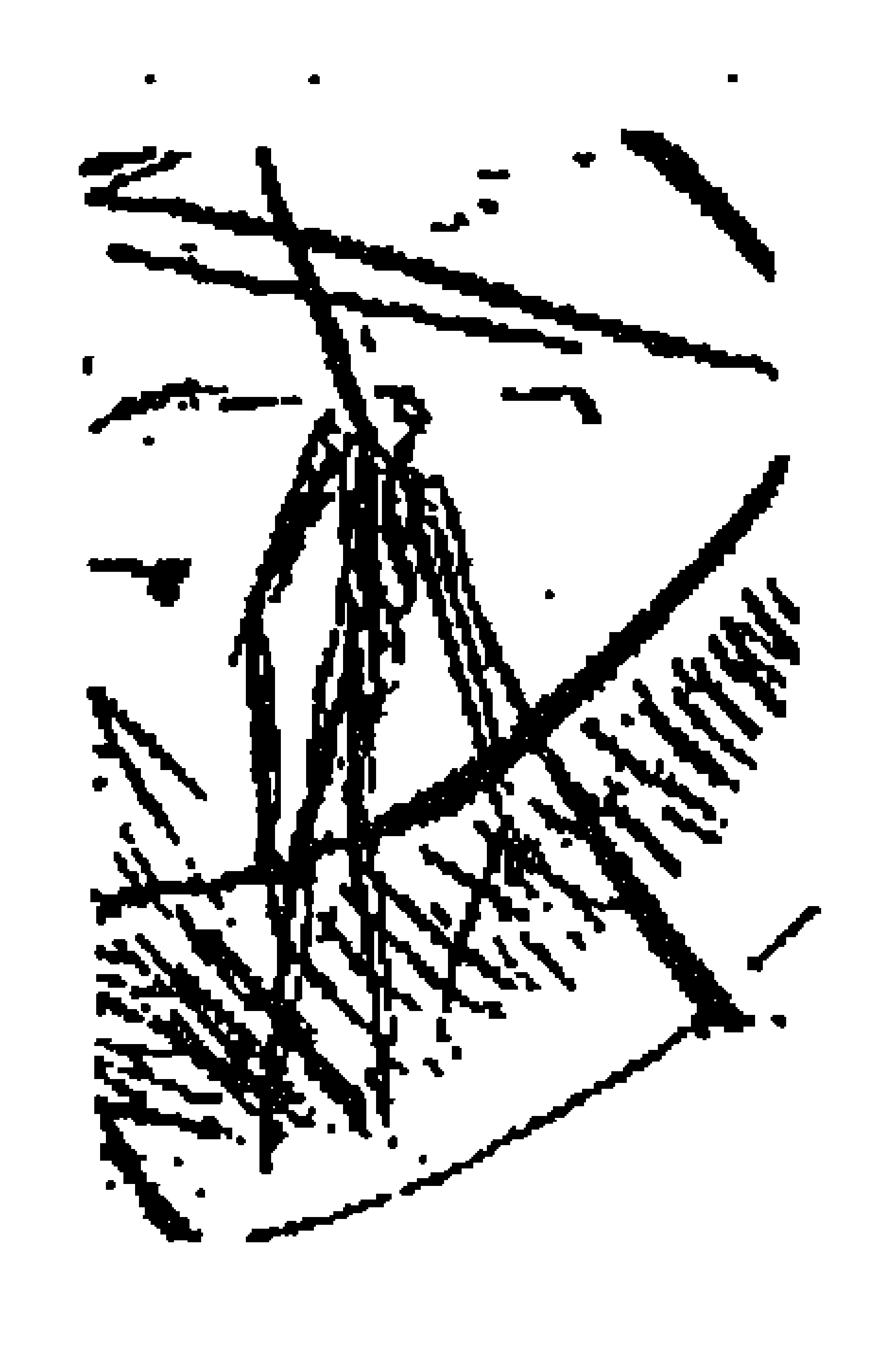
ارتمت فوقه ، وأحاطته بذراعيها وهى تصرخ بصوت متشنج :

- لا داعى لأن ندخل ، سنفعل هنا .. هنا

وتردد صوت أنين مكدود .. وظل يتكسر ويتداعى بين الأشجار .







ألقى الطفل بالعصا بعيدا فجرى الكلب والتقطها وعاد إليه ، وألقاها عند قدميه ، رماها مرة أخرى فجرى الكلب وتعثرت قدمه بالإناء فانقلب، وصاحت المرأة العجوز وجرت خلفه وهى تلوح بالملعقة.

اختبأ الطفل وراء الشجرة ، وجرى الكلب بعيدا ، وعادت المرأة العجوز وجلست إلى جوار الإناء . ظل الطفل والكلب يتمرغان فوق العشب ، وصوت الضحكات والنباح يتدحرج معهما ويتطاير بين الأشجار .

داعب الفتى الجميل أوتار جيتاره وهو يغنى :

حبك يملؤنى ويملأ أرضى وسمائى
يملأ جنتى ونارى
أحيا ويدك ترقص فى يدى
وأموت ويدك تنام على صدرى
أنا بداخلك وأنت بداخلى

لنفعل شيئا يهز عالمنا الصغير وعالمنا الكبير
لنجعل العيون تلتفت إلينا وتطيل النظر .. وتطيل النظر ..
ألقى بالجيتار فوق العشب ورفع يديه عاليا وصاح :
- هيه .. ما رأيك ؟
- انتظر ، أريد أن أكمل الصورة .

اقترب منها ونظر إلى الورقة ، أبعدتها ، اختطفها وجرى وهو يضحك ، وصاحت ، وجرت وراءه ، ظل يحاورها بين جذوع الأشجار ، ويلمسها ويقبلها ، ويفلت ، ويجرى ويضحك ، وتضحك ، ويصيح ، وتصيح . ارتمت فوق العشب وهى تلهث ، واقترب وهو يلهث ، أحاطت برجليه ودفعته فوقع وارتمى عليها ، احتضنته واحتضنها ، وظلا يتدحرجان ويصيحان . تمددا متجاورين . تطلع إلى الورقة وقال :
- رسمك جميل مثلك .

أغمضت عينيها الواسعتين .
- وصوتك جميل مثلك .. لمن هذه الأغنية ؟

داعبت أصابعه شعرها الطويل ، وخديها المتوردين ، وصدرها الفائر .
- ألفتها من أجلك .

داعبت ذراعه المفتولة ، وشعر صدره العريض .
- وأنا لك وحدك

ضمها إليه ، وارتجف صدره
- أيوجد من يعرف الحب مثلنا ؟

استكانت بين ذراعيه ، أنصتت لدقات قلبه

- أنا .. وأنت .. والحب .. ولا شيء غيره
- أقول فى أغنيتى ، عشنا ولم ينظر إلينا أحد
لوحت بيدها وصاحت :
- لنصفعهم ونرحل بعيدا
ضمها إليه أكثر
- لم يعد لى سوى أن أموت من أجلك
أغمضت عينيها واستكانت
- سعادتى أن أموت من أجلك
تأمل وجهها . بدت ملامحه تتسع ، تفور بنشوة متوردة
- وهل جربت الموت من قبل ؟
ضربته على صدره وصاحت :
- وهل جربته أنت ؟
ظل يرتشفها بعينيه
- سيكون موتا لذيذا مادمت معى
انفلتت من بين يديه ، وجرت وهى تضحك
- سأتركك تموت بمفردك .. سأبحث لى عن حبيب غيرك .
قام وجرى خلفها وحاول أن يمسك بها
- وأنا أيضا سأبحث لى عن حبيبة غيرك
وظل صوت ضحكاتهما يتدفق ناعما بين الأشجار .
وقفت ونظرت إلى مسقط الماء وهو ينسكب فى البحيرة الصافية ، والتفتت ناحيته وهى تلهث .

خلعت رداءها وقفزت إلى الماء وغطست فيه . خلع ملابسه وقفز إليها. ظلت تسبح وترشه بالماء ، وتضحك ، وتصيح . حاول أن يمسكها ، حركت قدميها فتطاير الماء إلى وجهه . التوى وغطس من تحتها ورفعها . حاولت أن تتخلص منه ولم تستطع .

استكانت .. وظلت نظرته ترتشف قطرات الماء العالقة بشفتيها ، وعنقها، وصدرها ، وأجفلت عيناها والتمع أحمرار خديها .. همت بالكلام ، وهم بالكلام .. ولم يتكلما .

وضع يديه عليها ووضعت يديها عليه ، واقترب جسداهما ، وأخذا يهبطان تحت الماء ، ظلت فقاعات الهواء تتصاعد إلى السطح . حركا أرجلهما فارتفعا معا وبرز رأساهما من الماء ، تنفسا بعمق ، وهبطا .. وارتفعا .. وهبطا ..

وتوهج الدفء فى جسديهما فاقشعرا من برودة الماء . أمسكت بكتفيه ووضعت رأسها على ظهره وهو يسبح فى تكاسل . تعلقت يداها بصخرة ، صعدت وتمددت فوقها وهى تلهث .. تمدد إلى جوارها ووضع يده على وجهه . ارتفع صوت انسكاب الماء وارتطامه بصخور البحيرة .. قال بصوت منخفض :

- ليتك تشعرين بما أشعر .

همست بصوت مبحوح :

- ليتك تشعر بما أشعر .

حطت نظرته على قمة الربوة ، وبدا وجهه ساهما

- إنك تذهبين كثيرا إلى خيمته .

انحدرت حبات الماء على صدرها المنتشى

- إنه يعلمنى

انقلبت على بطنها وأغمضت عينيها ، بدا وجهها متوردا بين خصلات الشعر .. فاجأها

- ألا تفكرين فى العودة ؟

نظرت إليه وقالت بصوت متردد :

- إلى أين ؟

وتساءلت بعد برهة

- وأنت ؟

انقلب على بطنه ، وأغمض عينيه

- يفعلون هنا أشياء غريبة

قالت وهى تشعر بجسدها يتخدر :

- ونحن أيضا .. ولكن .. إذا وجدت لنا مكانا أفضل ..

- نبحث معا .. لا أستطيع أن أقتنع أبدا بما يفعلون

ساحت نظرتها عند الخيام، والأشجار، والربوة، ومسقط الماء. وقالت:

- إن من يأتى إلى هنا، لا يتركه المكان.. هكذا يقول الأب العظيم

أبعد خصلات الشعر عن عينيها وقال وهو يضحك :

- أى مكان ؟

- هنا .. الأرض.. والشجر.. والربوة الخضراء.. والهواء.. ونحن أيضا

- ونحن !

- الأجزاء تحولت إلى كل ، ولا يمكن فصل الجزء عن الكل .. هكذا

يقول ، أم تراك نسيت ؟

- أيعنى ذلك أننا لا نستطيع الرحيل ؟

- يقول ، إن الأرض والشجر ..

جذبها إليه وهو يضحك

- هل أصابتك عدوى أفكارهم ؟

أحاطت وجهه بكفيها ونظرت فى عينيه

- يقول ، إن من يفكر في فصل الجزء عن الكل ، فإن الكل يحتويه ويمتصه .. يقول ، الشجر ينشق ويقذف بالصواعق والأرض تنشق وتبتلع ..

قام وجرى ناحية شجرة كبيرة ، وأمسكها بيديه وهزها وهو يضحك ويصيح :

- اسمعينى أيتها الشجرة ، سأرحل غدا ، سأترك هذا المكان ، هيا انشقى واقذفى بصواعقك ، هيا أيتها الحبيبة العجوز .

جرت إليه وضمت ظهره إلى صدرها وهى تردد :

- لا تقل هذا . إنى أخاف عليك

التفتا فوجدا الأب العظيم يتطلع إليهما ويبتسم . اقترب ووضع يده الكبيرة على جذع الشجرة ، تحسسه ، ودار حوله ، ودق عليه ، قرب أذنه من قشرته الخشنة . نظر إلى السماء وهمس بصوت منخفض :

- الرب يعطى الحياة .. والرب يأخذ الحياة

تبادل الفتى الجميل والفتاة الجميلة نظرات خاطفة. حاول الأب العظيم أن يدخل أصبعه فى شق داكن، ممتد بطول الجذع.. قرب فمه منه وأخرج صفيرا متقطعا من بين شفتيه. ابتسم، وهز رأسه، وتراجع إلى الخلف. رفع

قبضته إلى أعلى واعتصرها ، وقال :

- الرب يعلمنا حتى لا تتعثر أقدامنا

وضرب جذع الشجرة بقبضته ، فدخلت فيه وأحدثت فجوة . تراجع الفتى الجميل والفتاة الجميلة إلى الخلف وهم ينظرون إلى يد الأب العظيم. تلونت ملامح وجهيهما . أخرج الأب العظيم يده وأشار إلى الفجوة وقال للفتى الجميل :

- يمكنك أن تنظر إلى جوفها .

اقترب الفتى الجميل ونظر ، واقتربت الفتاة الجميلة ونظرت ، وقالت بصوت متردد :

- تبدو مجوفة .. و .. متفحمة من الداخل .

هز الأب رأسه ولم يتكلم. وضع يده على كتف الفتى الجميل، ومشيا .. قال له بصوت رقيق :

- ألا تريد أن تعزف لنا شيئا ؟

تساءل الفتى الجميل :

- الآن ؟

نظر الأب العظيم إلى جذع الشجرة وتنهد :

- كان يحب أن يجلس إلى جوار هذه الشجرة ويعزف .

- من ؟

- الفتى الفنان . أنت لم تره . كان موهوبا . وكان عظيما .

- وأين هو ؟

ضم الأب العظيم كفيه إلى صدره ، وأسبل عينيه

- كان يعزف للطيور ، وللحيوانات ، وللأشجار ولم يكف .. وعشقه المكان ، فأصر على أن يتشرب أنغامه العذبة إلى آخر قطرة .

قال الفتى الجميل فى تلهف :

- هل يمكن أن أراه . وأن أستمع إلى عزفه ؟

اقترب الأب العظيم من الفتى الجميل ونظر إلى عينيه

- أتريد حقا ؟

أومأ الفتى الجميل برأسه ، وأردف الأب العظيم بصوت حالم :

- كان ينصت إلى رفيف الملائكة ، كانت روحه تسبح معها فى سماء الرب ، لم يكن يعزف بيده ، ولا بجيتاره . كان يشع أنغاما . تتسع من حوله وتتوهج ، تغمر كل الأشياء . وترويها . وتسعدها .

انتشت ملامح الفتى الجميل ، أمسك بيد الأب العظيم وقال :

- ألا تأخذنى إليه ؟

بدا وجه الأب العظيم ساهما

- أعتقد أنه دون بعض ألحانه ، يمكننى أن أبحث لك عن الأوراق .

ومتى أراها يا أبانا ؟

وضعت الفتاة الجميلة يدها على جذع الشجرة ، أدخلت أصابعها فى الشق المعتم ..

اقترب الأب العظيم منها ونظر فى عينيها ، اختلجت شفتاه الكبيرتان وقال :

- امتصته .. ذابت فيه ، وذاب فيها .

بدت الدهشة على وجه الفتاة الجميلة ، لم تتكلم . قال الأب العظيم وهو يربت على الجذع :

- الرب يهب المحبة لمخلوقاته . ولقد أحبته الشجرة ، عشقته ، أسند رأسه إلى جذعها فحنت عليه بأغصانها ، وهبته من عصارتها فنا بكرا جرى في عروقه ، ألهمته أنغاما لم تعهدها أذن من قبل

قال الفتى الجميل فى حماس :

- أين هو يا أبانا ، أريد أن أقابله .

ربت الأب العظيم على كتف الفتى الجميل ، تطلع إلى السماء وقال بصوت هادئ :

- عندما يشاء الرب ، تجد نفسك معه .

تساءلت الفتاة الجميلة :

- هل رحل ؟

التفت الأب العظيم ناحيتها وابتسم وهز رأسه

- رحل .. !

وتهادت نظراته على الأشجار، وعلى الربوة الخضراء وعلى مسقط المياه

- الكل هنا لا يتخلى أبدا عن الجزء .. إنه سر المكان يا ابنتى ..

أمسك الأب العظيم جذع الشجرة بكلتا يديه ، ووضع أذنه على الشق ، وأغمض عينيه ..

همس ..

- تعالى يا بنى .. يمكن أن تسمع .

اقترب الفتى الجميل ووضع أذنه ..

- أسمع ماذا ..؟

- لا تتكلم .. أغمض عينيك وأنصت جيدا ..

ألصق الفتى الجميل أذنه بالشق .. أحاط الجذع بذراعيه .. اختلجت

ملامح وجهه ..

همس ..

- يبدو أننى أسمع شيئا ..

حاولت الفتاة الجميلة أن تقترب .. وضع الأب العظيم يده عليها ومشى بها ، قال :

- لندعه يستمع ..

اتجها ناحية الربوة .. تنهد الأب العظيم وقال :

- يرقد هنا ، أسفل الشجرة ..

- من ؟

- الفنان العظيم ..

- مات .. ؟

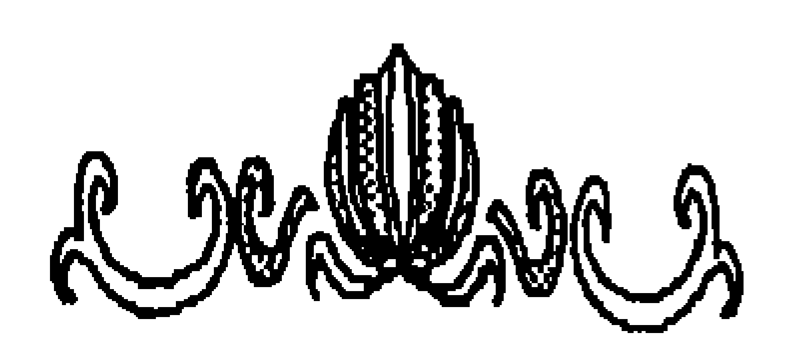
نظر الأب العظيم إلى العشب الأخضر ، ضغط عليه بقدمه ..

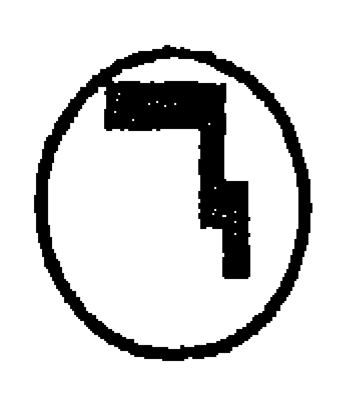
- بل انتقل .. كان يعزف عند الشجرة .. وكان ضوء القمر ينسكب عليه من سماء الرب .. وفى الصباح وجدناه قد انتقل ، ووجدنا الجذع مشقوقا .. فأرقدناه بأسفله .

ارتفعت نظرة الفتاة الجميلة إلى وجه الأب العظيم .

- أكان ينوى الرحيل ؟

زم الأب العظيم شفتيه وأشاح بوجهه ، خفت خطواته فى حماس وهو يصعد الربوة .







تسلل الهـواء باردا بين الأشجـار والخيـام ، تماوجت الأضـواء الشاحـبـة وهى تنسكب على الأجساد ، وتسيل بين الظلال ..

انبعث صـوت الأوتار دافئـا ، يتسع ويغـمر الأشـياء ، يذوب عند أطراف الظلام ، الأجـسـاد متـلاصقـة ، ومتـعانقـة ، تتمـايل وتحرك الأرجل فى كـسل ، فوق العـشب المبتل ، العـيون مـسبلة ، مغمضة ، والشفاه تهمس ، تلهج ، تتأوه ، يمتص بعضها البعض ، والأيدى تعتصـر ، تتحمس ، تبحث فوق الشياب ، بينها ، تحتها ، والأرجل تتـباعد ، تتـقارب ، تتـداخل ، تتلامس ، تحـتك ، تجـثو .. وتأوهات الجيـتـار رتيبـة وناعمة ، تتدفق من الأوتار ، وتتهادى مع الهواء .

جلست الفتـاة الجميلة على ركبـتيها واحـتضنت ساقى الفتى الجـميل ، منتشية ، مـسبلة العينين ، تهز رأسها فى رتابة .. لـم ينظر إلـيها ، ظل منحنيا

على الجيتار .

جلست المرأة الطويلة وأسندت ظهرها إلى جذع الشجرة ، وارتمى الرجل الطويل ووضع رأسه على رجليها وهو يلهث ، همس بصوت مرتجف ..

- أين الولد ؟

- ذهب لينام ..

- أتعتقدين أنه .. ؟

وضعت يدها على وجهه وهى تنظر ناحية الخيمة .

- لم يعد كما كان .. ألا تذهب به إلى طبيب ..

ظل ينظر إلى كتل الغمام وهى تتجمع وتتداخل ..

- ألم نذهب بهم من قبل .. ؟

ترقرقت الدموع فى عينيها وسالت على خديها ..

حاول الفتى النحيف أن يضم صدر الفتاة البدينة إليه وهو يقول :

- أشعر بالبرد يملؤنى .

فتحت الفتاة البدينة ثوبها ، وفتحت ثوبه ، وضمت صدره إلى صدرها وضغطت عليه ..

- سأدفئك

أسند رأسه إلى كتفها وهمس ..

- لا شيء يدفئ الصدر المثقوب .

ازداد ضغطها عليه ، ساخت عظامه فى لحمها ، وهى تضحك بصوت رفيع ..

- أدفأت الكثيرين من قبل .. ألست مثلهم ؟
همهم وهو يدغدغ انتفاخ صدرها بأسنانه ..
- لست مثلهم .
صفقت بيديها وصاحت ..
- ستكون إذن شيئا مثيرا
جذبته ناحية الخيمة ..
- لابد أن أرى بعينى
وقبل أن تلتقط أنفاسها جذبت ثيابه ونظرت .. تراجع ، شهقت ، تدفقت الضحكة من فمها ..
- ما هذا .. ؟
جلس منكس الرأس ..
- ألم أقل لك .. ؟
- لم تقل شيئا
ركعت أمامه وحاولت أن تجذب ساقه ..
- أرنى ، أريد أن أرى مرة أخرى ، أيمكنك أن ..؟
دفع يدها وصاح ..
- كفى ..
انكمشت وحاولت أن تتطلع إليه من أسفل .
- ألا تخبرنى .. ؟
بدأت الأصوات ترتفع ، تدور حول الخيمة ، تحاصرها وتتساقط عليها..
تسرب الدم من وجهه الساهم وتجمع عند أذنيه .. احتارت نظراته ثم

تداعت عند الأقدام .. ردد فى إعياء ..

- اكتشفت أخيرا أنه لم يعد هنا ما يثيرنى ، أو حتى ما يستحق أن ألتفت إليه ، انصهرت فى حياة مريرة من الصمت والترقب .. لا أعرف كيف ذهبت إلى هناك .

فى البداية ، عندما رأيتهم يفعلون ذلك كنت خائفا ولم أكن أتصور كيف يحتملون .. ؟ .. قالوا ، لم لا تجرب .. أخذت منهم القرص وابتلعته.. شعرت أن الأرض تهبط من تحتى ، ورأيت الدخان يتلون ويتكاثف على وجهى ، ورأيت السنة الشمعه تتمدد وتنكمش .. حاولت أن أرفع يدى الثقيلة ، أصابع كثيرة تتلوى ، قربتها من رأسى ، لى رأسان ، وجه يبكى ، ووجه يضحك ، وسمعت الصوت يتدفق من أذنى ، غليظا يرتطم بالأرض وبالسقف وبالجدران .. وأتت أصواتهم من بعيد ، هيا .. هيا .. وأوقفونى وجذبوا سراويلى .

صفقت بيديها وصاحت بصوت رفيع ..

- رائع .. أكمل ..

- وأجلسونى ووضعوا الشمعة بين ساقى .. ورأيت اللهب الأحمر يتمدد ويتلوى ، وشعرت بألسنته الدافئة تداعبنى ، لذيذة ، مثيرة ، تحملنى وترتفع وتؤرجحنى . وهم من تحتى يصخبون بوجوه متماوجة ، وأفواه متسعة ، يقولون ، يمكنك أن تقرب الشمعة قليلا إن أردت ! ..

ارتمت عليه وقبلته ، تألقت الدهشة فى عينيها وهتفت ..

- عجيب هذا .. مثير .. هيه ، أكمل ، أكمل ..

أحاط رأسه بكفيه وغمغم ..

- كنت أذهب عندهم ، وفى كل ليلة كنت أرفع الشمعة قليلا عن الأرض .. !

أمسكته بكلتا يديها وهزته ..

- يبدو أنها لعبة لذيذة ومثيرة .

تطلع إليها ، تشنجت ملامحه وتورم أنفه واتسعت عيناه ، ضم ساقيه وأحاطهما بذراعيه ..

ارتمى على الأرض وهو ينتفض ويزوم.. ارتفع صوت تطاحن أضراسه.

- أريد قرصا ، أريد شمعة

انحنت عليه وظلت تقبله وتردد ..

- رائع يا حبيبى ، إنك تثيرنى ، أريد أن أراك تفعل ، هيا هيا يا حبيبى

دفعها بيده وأجهش بالبكاء .. التقط زجاجة الخمر وأفرغها فى جوفه .. وصاح ..

- لا أريد شيئا .. لم أعد أريد ..

تساقطت دموعها وهى تقرب يدها من رأسه ..

- يقول الأب العظيم ، إن البكاء يغسل الأبدان والأرواح ..

وهمست قريبا من أذنه ..

- يمكنتى أن أحضر لك شمعة كبيرة .

وابتسمت وقالت فى ميوعة ..

- ولى أيضا شمعة كبيرة ، ألا تعلمنى كيف أضعها ؟

حدق فى وجهها .. لوحت بيدها وقالت ..

- الأب العظيم عنده شموع كثيرة ، ويمكنني أن ..
قاطعها وهو يدق الأرض بقبضته ويلهث ..
- لا أريد منه شيئا ..
- لماذا .. ؟ إن شموع الأب العظيم مباركة
صاح في وجهها ..
- كفى ، لم أعد أطيق سماع اسمه
تراجعت وفغرت فاها ..
- من .. ؟ الأب العظيم .. ؟
زحف وأسند رأسه إلى المقعد وأغمض عينيه .. وظل صامتا ..
أشعلت سيجارة وقربتها من شفتيه وهي تقول :
- إنك تتألم ..أتحتاج إلى الأب الأعظيم ؟
ارتفع صوت اصطكاك أسنانه وهو يغمغم ..
- الأب العظيم .. هه .. يبدو أننا خدعنا . !
هزت كتفيها وقالت :
- كلنا نعرف أننا خدعنا ، وأننا جئنا طلبا للشفاء من الخديعة ..
نظر إليها وتدفقت الضحكات من جوفه فجأة ..
- بلهاء .. بلهاء ..
نظرت إليه وتدفقت الضحكات من جوفها ..
- أعرف .. ولنضحك معا .
حاول أن يقف ، اهتز وتطوحت يداه ، مال عليها ووضع رأسه على صدرها ، وهمس في هذيان ..

- يقولون أنه قتل زوجته وعشيقها بطل حمل الأثقال ..

أدخلت يدها تحت ثيابه ..

- وماذا أيضا ..؟

- يقولون أن صديق الأب العظيم دعاه إلى مزرعـته .. وأنهما غفلا عن الطفل ، طفل الأب العظيم ، الوحيد .. وعندما رجعا إليه لم يجداه ووجدا المكان ممتلئا بالجراد .

أدخلت يدها الأخرى تحت ثيابه ..

- ثم ماذا ؟ ..

- يقولون أن الأب العظيم ظل يضـرب الجراد بيديه وبرجليه وبـالعصا وبالبندقية .. وعندما أفاق وجد صديقه مصابا برصاصة فى رأسه ..

نشطت حركات يديها وهى تضمه إلى صدرها ..

- وبعد .. ؟

- بعد ذلك ظل مختفيا .. ثم رأوه يتردد على جماعة الشموع ..

رفعت الثياب . ومالت بظهرها إلى الخلف ..

- ما أروع الشموع ..

- كان يذهب إليهم كل ليلة ، ويوزع عليهم الشـموع ، ويشعلها لهم . ويضعها بين سيقانهم .

تشـجنت ذراعاها وهى تضـغط عليه فى عناد ، خـرجت من جوفـه آهة مبتورة .

همست بصوت محموم :

- وأين شمعتى .. ؟

تراخى بين يديها ، ونشع عرقا باردا ..

تحـركت فى عصـبيـة ، وهى تستـحلب نشـوة منهزمـة .. دفعـته بيـدها وصاحت :

- لم تعد تصلح ..

تأملت فيه وهى تلهث .. ضحكت فى سخرية ..

- يبدو أنك استهلكت شموع العالم ..

قامت وعدلت ثيابها ، ومشطت شعرها .. تساءلت وهى تتثنى ..

- أكنت تقول شيئا عن الأب العظيم ؟

وضع وجهه على الأرض ، انزلقت حبات العـرق على رقبته وتقاطرت أسفلها ، همس بصوت مختنق ..

- ليتنى أستطيع ترك المكان ..

انفرج شق الخيمة وظهر قـدما الأب العظيم .. رفع الفتى النحيف رأسه وظل يتطلع إليـه فى صـمت .. أحس ببرودة العـرق تنثـال وتتشـعب على صدره . رأى ملامح الأب العظيم تشع ضوءا فضيا صافيا ، تتألق فيه عينان مسبلتان وشفتان تلهجان .. ورأى يـده البيضاء ترفرف فوق رأسه ، يتهادى منهـا الدفء والحنان ، يتسـرب إلى جسـده ، يهدهده ، ويخـدره .. زحف الفـتى النحـيف ناحـيـة الأب العظيم وهو يجـهش بالبكـاء .. تعلقت يداه المرتعـدتان بسـاقى الأب العظيم وانكسـر رأسه بـين كتـفـيه وردد بصـوت محموم ..

- رحماك يا أبانا .. رحماك يا أبانا ..

وضع الأب العـظيم يده علـى رأس الفـتى النحـيف .. تمدد صـدره

العريض وانقبض فى تنهيدة ثقيلة ..

- ابك يا بنى .. اعتصر الكدر الذى يملأ جوفك ..

ضم الفتى النحيف يديه إلى صدره وانحنى عليهما ..

- معركتنا الأزلية مع سجن أوعيتنا

ارتجف الرأس الصغير تحت اليد الكبيرة .. همت الفتاة البدينة بالخروج.. نظر الأب العظيم إليها واجهها بكفه .. ابتسمت وتراجعت .. ردد الفتى النحيف..

- الشياطين تملأ صدرى .

- طهر وعاءك يا بنى .

- واللهب يطاردنى من كل مكان

- أقهر اللهب باللهب .

تبادلا نظرة خاطفة، وبدا وجه الفتى النحيف ساهما.. صاح فجأة..

- أى شيطان وسوس بفكرة الشموع .. ؟

قال الأب العظيم ..

- هيا نخرج إلى الهواء .

نهض الفتى النحيف ونظر فى إلحاح إلى عينى الأب العظيم ..

- أريد أن أعرف

قال الأب العظيم فى جفاء ..

- لا يهم كثيرا أن نعرف أصل الأشياء ..

لاحقه الفتى النحيف ..

- من أبتدع هذه الفكرة .. ؟

أشاح الأب العظيم بوجهه وقال فى ضيق :

- قرأت عنها فى بعض كتب المتصوفة .. كانت تمارسها جماعة متطرفة لقهر شهوات الجسد ..

- وأنت أتؤمن بها ؟

مشى الأب العظيم ، أمسك عامود الخيمة بكلتا يديه وتنهد ..

- قد تختلف الطرق ، ولكنها تؤدى إلى نفس الهدف .

ثم نظر إلى الفتى وهز رأسه ..

- وماذا نفعل وقد خلق الرب لكل منا وعاء مختلفا ..

صاح الفتى النحيف فى مرارة :

- وأى وعاء .. ؟

ثم ارتمى على الفراش وهو يغمغم ..

- ذلك اللهب ، ما عدت أشعر به وهو يحرقنى .. وان ابتعد أشعل الجسد ..

رفع الأب العظيم يديه إلى أعلى .. وظلت شفتاه تلهجان بهمس رتيب .. جثت الفتاة البدينة على ركبتيها وضمت كفيها إلى صدرها .. قام الفتى النحيف وارتمى على صدر الأب العظيم وأمسكه بكلتا يديه وهو يبكى بصوت متشنج ..

وضع الأب العظيم يده على رأس الفتى النحيف ، التمعت عيناه وهو يتطلع إلى الفتاة البدينة ..

- لماذا لا ترقصان .. ؟

اقتربت الفتاة البدينة وقالت :

- أتريدنا أن نرقص يا أبانا .. ؟

همس الأب العظيم قريبا من أذن الفتى النحيف ..

- ارقصا جيدا ، وبعد أن تنتهيا ، تعالى إلى خيمتى .. عندى لك شمعة كبيرة ، مباركة ..

انتفض الفتى النحيف بين الذراعين الكبيرتين، وارتفع صوت اصطكاك أسنانه.. ضم الأب العظيم الصدر المهيض إلى صدره وقال:

ليست ككل الشموع التى استعملتها من قبل ، إنها شيء آخر ..

انتبه الفتى النحيف وتساءل فى تلهف :

- كيف يا أبانا .. ؟

همس الأب العظيم ..

- أشعلها وقربها جيدا ، وسترى ..

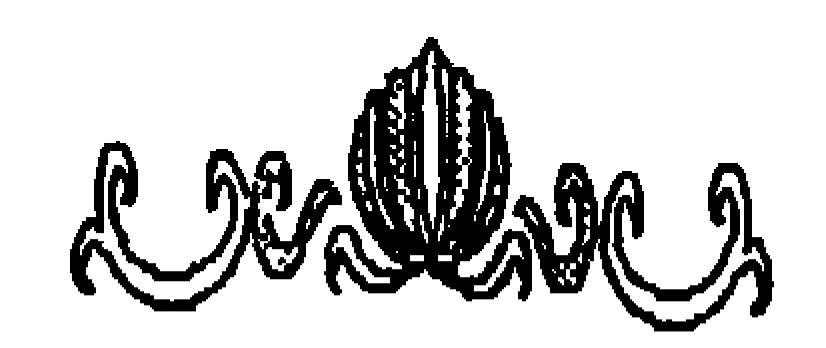
ثم أوما إلى الفتاة وهو يبتسم ..

- هيا ارقصا ..

صفقت الفتاة البدينة وصاحت فى رعونة ..

- هيا نرقص ..

وتنهد الأب العظيم ، وخرج من الخيمة فى هدوء .







حمل الحارس بندقيته واتجه ناحية خيمة الأب العظيم وهو يمسح يديه المتسختين فى ملابسه .. لوحت له المرأة العجوز بيدها وسارت، فتبعها ..

وضع ذراعه الطويلة على كتفيها وانحنى وقبلها .

دفعته بيدها وقالت :

- كم أخذت منه .. ؟

هم بأن يداعب شعرها، ولكنها ابتعدت ، وصاحت..

- ابعد يديك المتسختين عنى .

ضحك وجذبها من ردائها ..

- شيطانتى الصغيرة ، سآخذ كل ما أستطيع ..

التقطت فرع شجرة وحاولت أن تضربه فجرى وجرت خلفه.

- ألم يكفك ما أضعت على خمورك ونسائك .. إياك أن تمد يدك إلى نقودى .. أقتلك .. أتفهم .. !

- البلهاء تريد أن تقتل ولدها ..

تركته وعادت وهى تهمهم ..

- سأقتلك في يوم ما ، أنت وهذا الوغد ..

دخل الحارس خيمة الأب العظيم ، ووضع مؤخرة البندقية على الأرض، وأسند يديه على فوهتها .

الأب العظيم جالس أمام المنضدة ، ويداه مضمومتان إلى صدره ، وعيناه مغلقتان ، ولحيته الطويلة تهتز .. دق الأرض بكعب البندقية عدة مرات ، لم يلتفت إليه .. تقدم ونظر إلى المنضدة، فوقها بعض الكتب، والزجاجات الصغيرة، والشموع، والصلبان، وعصا صغيرة سوداء ذات رأس معدنى، وتاج كبير من الحرير الأبيض مطرز بالفصوص اللامعة.. الشفتان الكبيرتان تلهجان، ولهب الشمعة يهتز.. قال الحارس

- أريد أن أحادثك ..

تهادى الصوت دافئا من صدر الأب العظيم ..

- «لأنك قلت يا رب ملجأى . جعلت العلى مسكنك لا يلاقيك شر ولا تدنو ضربة من خيمتك» (٤)

- ليس الآن وقته .

فتح الأب العظيم عينيه ، حرك يده بإشارة على صدره ..

- اجلس وصل للرب يا بنى ..

قال الحارس فى برود :

- جئت من أجل النقود ..

أطرق الأب العظيم لحظات . ثم قال :

---

(٤) المزمور ٩١ .

- استمع جيدا لما أقول ..

قاطعه ، وهو يميل ناحيته ، ويستند بيديه المتسختين على طرف المنضدة ..

- بل استمع أنت .. أجرتني لكي أحرس لك هؤلاء الـ....، فلا أدع أحدا منهم يخرج أو يدخل دون أوامرك.. والآن أين ما اتفقنا عليه؟

تنهد الأب العظيم ..

- الرب يعطي .. الرب يأخذ ..

صاح الحارس ، فاهتزت الأشياء فوق المنضدة ..

- لا تحاول .. لن أخرج من هنا هذه المرة قبل أن آخذ أجري كاملا .

- أنت إذن تريد مالا .. أعتقد أنني أعطيت أمك ..

- أعطيت أمي إيجار الأرض ، أما أجري أنا فشيء آخر .

قام الأب العظيم وتحرك حول المنضدة .. يلبس جلبابا طويلا بني اللون ، ويشد وسطه بحزام عريض من الجلد الأسود ، ويتدلى من عنقه صليب من المعدن المطعم . قال في هدوء :

- ألا تنتظر ، فأعطيك أكثر مما اتفقنا عليه .. ؟

لوح الحارس بيده وصاح ..

- لن أنتظر .

رفع الأب العظيم طرف الخيمة وجذب فخ الجراد من الخارج .. اتجه ناحية المنضدة وهو يبتسم وعيناه تلتمعان .. أمسك الجرادة بحرص وظل يثبتها فوق لوحة من الخشب بدبابيس صغيرة .. الجرادة ترتعد وتصفق بجناحيها وتلوي بطنها .. عجزت عن الحركة تماما ..

أخرج مشرطا صغيرا لامعا من درج المنضدة وقرب نصله الحاد من

الجرادة .. اقشعر بطنها المستطيل ، ودارت عيناها ، واتسع فمها .. همس بصوت معسول ..

- لا تخافى .. سيكون ألما لذيذا

وضع النصل بين الصدر والرأس ..

- اهدئى يا ملاكى الصغير .. استمتعى جيدا بلحظة الانسلاخ ..

تحركت الأصابع فى ثبات وإصرار ، واتسعت العينان وبرقتا ، وكزت القواطع على الشفة السفلية .. انفلتت رجل الجرادة من اللوحة وظلت تضرب النصل فى استماتة .. لامسها بأنامله وقال فى سخرية ..

- أتريدين أن تفعلى شيئا بهذه الرجل؟ لا بأس.. لنخلصك منها..

وأمسك رجل الجرادة وجذبها فى بطء حتى انخلعت من الصدر .. ألقاها بعيدا وعاود تحريك النصل .. انفصل الرأس وتردد صوت احتكاك النصل بالخشب .. قرب الأب العظيم عينيه ودقق النظر .. أبعد النصل قليلا ثم هبط به فوق الرأس ، شطره إلى جزئين ، رفع الجزء الذى يحتوى على الفم بطرف النصل ، وفتح علبة من الصفيح وألقاه بداخلها وأغلقها .. تنهد ونظر إلى الحارس وقال بصوت منخفض ..

- جرادة كبيرة ..

وأعاد الفخ إلى مكانه وقال :

- الجراد يلتهم الأشياء يا بنى ..

نظر الحارس إلى المشرط اللامع ، وإلى عينى الأب العظيم .. تراجع قليلا ، وأمسك بندقيته وقال :

- والآن ألا تعطنى أجرى .. ؟

وقف الأب العظيم برهة إلى جوار الفراش .. انحنى ، وأخرج حقيبة صغيرة من تحته ، وضعها ، وفتحها ، وابتعد عنها .. اقترب الحارس ونظر ، واتسعت عيناه ، وانفرج فمه ..

- يمكنك أن تأخذ أجرك.. ولكن إذا انتظرت .. أعطيتك الحقيبة كلها ..

امتدت اليد المتسخة ، تلمست الأوراق المالية ، اندست بين الرزم ، انبسطت فوقها وضغطت عليها ، تراجعت وأغلقت الحقيبة .. قال وهو يحمل البندقية .

- يمكننى أن أنتظر ..

اقترب الأب العظيم ، ووضع يده على كتف الحارس ..

- باركك الرب يا بنى .. اذهب إلى عملك وكن يقظا ، حاول أن تصلى للرب كثيرا ونفذ ما اتفقنا عليه ..

تبادلا النظرات والإيماءات ، انحنت قامته قليلا وهو يخرج من الخيمة .

جلس الأب إلى المنضدة وفتح العلبة ونظر بداخلها .. ثارت ملامحه .. دق المنضدة بيده وقال :

- الجراد القذر يلتهم قلب الأشياء .

دفع الطفل رأسه من شق الخيمة وعيناه تدوران وفمه يلهث ، صاح بصوته الرفيع ..

- هل رأيتم كلبى ؟

دخل ومشى فى هدوء وهو يتلفت إلى الأشياء . اتجه إلى الأب العظيم ووضع يده على اليد الكبيرة وحاول أن يهزها ..

- أين كلبى يا أبانا ؟

فتح عينيه ونظر إلى الطفل وابتسم، رفعه وأجلسه فوق ساقيه ..
- كلبى جرى ولا أعرف أين ذهب .. أريد أن ألعب مع كلبى ..
تحسس شعره وعنقه وربت على ظهره .. همس بصوت مندهش ..
- ما أقرب الشبه .. !
قال الطفل وهو يهز ساقيه :
- بابا نائم ، وماما نائمة ، والكلب ذهب.. هيا نلعب بالكرة أنا وأنت ..
هز الأب العظيم رأسه فى أسى ..
- لم يعد فيها ما يلذ يا بنى
انطلقت ضحكته الرفيعة وقال
- لعب الكرة لذيذ جدا يا أبانا
أحاط رأسه الصغير بيديه ونظر إلى عينيه ..
- اذهب وصل للرب يا بنى
غضب الطفل ولوح بيده وصاح ..
- لا أريد أن أصلى ، أريد أن ألعب بالكرة ، أنا عندى كرة كبيرة تجرى وتنط ، أتريد أن تراها .. ؟
التقط الأب العظيم شمعة وقربها من الطفل ..
- سأعطيك هذه الشمعة الكبيرة .
انفلت الطفل من بين يديه ووقف أمامه وصاح ..
- خلها وتعال العب معى بالكرة .
أمسك كتفيه الصغيرتين وانحنى وتطلع إلى عينيه ..
- أنت صغير ونظيف يا بنى ، لم تلوث الخطيئة نفسك الطاهرة ،

وستكون رحلتك كما تنام حلما لذيذا ممتعا .. أتريد أن تطير مثل الحمام وترتفع إلى أعلى ..؟

حملق الصبى فى وجه الأب العظيم وفتح فمه ، فرد ذراعيه وظل يرفرفهما وهو يضحك ..

- أطير مثل الحمام .. ؟ نعم أريد ، دعنى أطير مثل الحمام ..

ضمه إلى صدره وهمس قريبا من أذنه ..

- أتريد حقا أن تطير وترتفع معنا . ؟

صاح الصبى وعيناه تتألقان وصدره الصغير يعلو ويهبط ..

- أريد .. أريد ..

همس الأب العظيم فى ارتياح

- لتكن مشيئة الرب

تركه الطفل ، وجرى ، وارتمى على الأرض ، وجذب فخ الجراد ، ونظر إلى الجرادة

حاول أن يقرب أصبعه من أرجلها وهى تتدافع وترتعد ، لامس رأسها المتوتر ، التفت وصاح :

- الجرادة تبكى يا أبانا . !

انتبه الأب العظيم ونظر ناحية الجرادة وعيناه تلتمعان ..

تدفقت ضحكات الطفل ناعمة ..

- أنظر يا أبانا ، الجرادة تلعب معى ، تريد أن تعض أصبعى ..

جرت دموع الطفل على خديه ..

- رجل الجرادة انكسرت يا أبانا . الجرادة تصرخ لكى تخلصها ..

ونظر إلى الأب العظيم وعيناه محمرتان

- هيا نخلصها يا أبانا

ابتسم الأب العظيم وهز رأسه ، مد يده وقال :

- تعال ، لا تخف عليها . الرب يخلص الجميع يا بنى .. اسمع ، أتعرف كيف تصطاد الجراد .. ؟

تساقطت دموع الطفل على الأرض وهو يتخاطف شهقاته .

- هيا نخلص الجرادة يا أبانا ..

اتسعت ابتسامة الأب العظيم وتوردت ملامحه وارتخى جفناه . خرج صوته رخوا

- ليتك تتعلم صيد الجراد يا بنى . !

اقترب الطفل من يده الكبيرة

- خذ كرتى وكلبى وهيا نخلص الجرادة .

تنهد الأب العظيم وأمسك بالطفل وقال :

- لا تخف ، سأجعلك تقطعها بيدك ، وترى فمها الكبير . وأسنانها الحادة ..

صاح الطفل

- لا أريد .. سأخلصها أنا

وجرى وارتمى على الأرض ، وأطلق الجرادة من الفخ . حاولت أن تقفز . وقعت على ظهرها . انتفض الأب العظيم وهرول ناحيتها . اعتدلت وضربت الأرض بجناحيها وقفزت .. حاصرتها أصابعه الكبيرة المرتعدة . انفلتت من بينها وطارت ووقعت على المقعد . امتدت يداه، وانحنى جسده،

وتلاحق صـوت أنفاسه الخـشن . وقع وارتطم بالمقعـد وبالأرض ، وطارت من بين يديه ، ومرقت من شق الخيمة ، وارتفعت عالياً إلى السماء .

تدفقت ضحكات الـطفل ، انطلق صياح الأب العظيم يهز الخيمة وهو يدق الأرض بقبضتيه

- هل جننت . ؟ بعد أن كانت في يدنا ! ماذا أفعل بك الآن !

تحامل الأب العظيم علـى المقعد ورفع جـسده عن الأرض . جلس على الفـراش ونكس وجهـه بين يديه وظل يشـهق ويهمـهم بصـوت متشنج .. اقتربت القـدمان الصغيرتان ، مـضطربتين .. وانحنى الطفل وهو يحاول أن ينظر إلى وجه الأب العظيم .. وقال بصوت حزين :

- أتبكي مثلنا يا أبانا .. ؟

رفع الأب العظيم رأسـه .. الـعيـنان مـحـمرتـان و مملوءتان بالدمـوع . انعكست صورة الطفل على الغـشاء الملتمع بين الجـفنين .. مد يديه وهمس بصوت حنون :

- تعال .. تعال يا طفلي الصغير ، النظيف ..

قال الطفل وهو يقترب من صدر الأب العظيم :

- لا تبك يا أبانا، سأحضر لك جرادة كبيرة وسأعطيك كرتي .. وكلبي.

أخذه الأب العظـيم وضمه إلى صـدره وظل يقبله ، وتسـاقطت قطرات الدموع على الشعر الأصفر المتهدل ، همست الشفتان المرتعدتان بالقرب من أذن الطفل

- أريد أن أعترف لك .. يا طفلي الوحيد

تململ الصـدر الصغـير ، وحـاول أن يبتـعد قـليلا ، ولكنه لم يتـمكن .

انسلخ الصوت دافئا عن صدر الأب العظيم

- لا أعرف تماما من نكون . ؟ ولا أى طريق نسلك .

ولكن من المؤكد أننا لابد وأن نخطو الخطوة التالـية .. أقول .. قد نكون خـلاصة القـذارة البشـرية .. وقد نكـون آخر شـعاع نقى يتـلاشى عن هذه الأرض .. لا أعرف ..

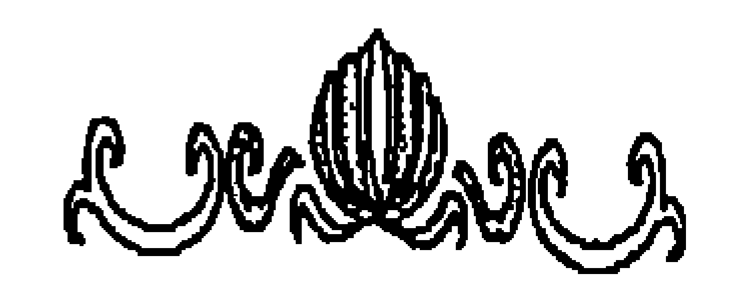
صـدقنى يا بنى وحاول أن تـقدر مـوقفى .. فـفى كلتـا الحالتين أصـبح الانتقال أمرا حتميا ..

مشكلتنـا أننا سقطنا من قاع الأرض إلى الفـراغ اللانهائى . وأصـبحت رحلتنا أملا فى التعلق بشيء لا نجده !

لا أعرف أى ريح خبيثة تلك التى جمعتهم حولى ، وبلورتهم بكيانى .

أنا لا أحب نفسى ، ولا أعرف كيف أبعـدهم عنها . حاولت أن أدفعهم بعيدا لكى أنجيهم ، ولكن يبدو أن خبثى المسعور كان يقطع عليهم كل منافذ الهروب ، ويزيد البللورة تماسكا وصلابة .. والآن ، أتـراك فـهمـت شـيئا ، يا أبانا الصغير النظيف .. ؟!

نظر الأب إلى وجـه الطفل ، كـان نائمـا ، يتنفس فى هدوء .. وكـانت ملامحه البريئة تشع صفاء ورديا .







دخلت الفتاة السوداء خيمة الأب العظيم. كان ممددا على الأرض، عارى الصدر، عيناه مغلقتان، والمصباح يهتز، والظلال تتمدد وتنحسر على الأشياء.

اقتربت منه ، لامست أطراف ثوبها رأسه وعنقه .. جلست إلى جواره ، ووضعت يدها عليه . تألقت ملامحها الطفولية وهى تقول بصوت ناعم

- أأنت نائم يا أبانا . ؟

لم يتحرك . مالت عليه وقبلت جبهته العريضة .

- تبدو مرهقا

تمدد صدره بشهقة عميقة ، واختلجت شفتاه بهمس موتور . تلمست شعر رأسه وأذنه وعنقه ، وقالت فى حنان :

- ألا تريدنى أن أعد لك طعاما أو شرابا ؟

مال رأسه ولم يتكلم . داعبت أنفه بأصبعها

- أما أنا فقد أكلت ، وشربت ، ورقصت ، ثم ها أنذا أضع نفسى بين يديك ..

هدأ توتر الهمس ، واتضح تدريجيا

- .. و .. قد ينقضوا علينا .. إذن .. لم يعد هناك بد ..

أدارت وجهه ناحيتها

- ماذا تقول .. ؟

انفرجت رموشه قليلا

- .. و .. كلما كان أسرع .. كان أفضل ..

تحسست انتفاخ صدره ، وابتسمت فى ميوعة ..

- ألا تريدنى . ؟

- .. و .. ولكى يلتفت خلق الرب .. فلابد أن تكون الصفعة قوية ..

رفعت رأسه وقربت الكأس من شفتيه

- اشرب .. أتريد أن تقضى الليلة هكذا .. ؟

- .. فلا .. نترك للجراد شيئا يشفى غليله ..

ألقت بالكأس فى عصبية . زاغت عيناها وارتفع صوت تنفسها . تلفتت . ارتمت نظرتها على وجهه .

- ألم تعدنى . ؟

فتح عينيه برهة وتطلع إليها ، عاد فأغلقهما ..

- ماذا يا ابنتى ؟

قامت وأسندت ظهرها على عامود الخيمة . أدخلت يديها تحت ثوبها وظلت تخمش لحمها بأظافرها . زمت شفتيها ، وتلاحقت همهماتها ،

نشطت حركة أصابعها ..

- أين السوط ؟

غطى وجهه بيديه ، وقال بصوت خافت :

- ليس الآن يا ابنتى .

خلعت ثوبها وألقته على الفراش

- أرجوك .. !

بدا جسدها الشمعى مخضبا بخطوط قاتمة ، تحيط بالصدر والبطن والأرداف . ظل صامتا ، ثم لوح بيده وقال :

- اخرجى إليهم ، يرقصون ويغنون .

بكت ، وجذبت شعرها ، وضربت الأرض بقدميها

- رحماك يا أبانا .. النار تأكل جسدى .

وهاجت تبحث بين الأشياء وهى تردد :

- أين السوط ؟ أين السوط ؟

جذبته من تحت الفراش . وارتمت على يده تقبلها وتبللها بالدموع ..

- ها هو السوط .. هيا يا أبانا ، هيا

تسرب الصوت من جوفه واهنا :

- لا أريد .. اذهبى الآن

هزته بعنف وهى تصيح :

- ولكننى أريد

ارتجفت يداه فوق وجهه

- وعندما يريد الرب ، فإن ..

قاطعته فى إصرار :
- الرب يريد الآن ، هيا افتح عينيك وانظر
همس بصوت يختنق فى حلقه
- لا تحاولى .. لا أستطيع
احمرت شرايين عـينيها وهى تحملق فيـه ، بدت تهدهد غيظا يتلوى فى صدرها .
تمددت إلى جواره ووضعت يدها على وجهها .. قالت :
- ترهق نفسك كثيرا .. لماذا لا نذهب إلى مكان آخر .. ؟
لم يتكلم ، ولم يتحرك .. قالت :
- وهذه المرأة العجوز ، أصبحت لا تطاق .. تتكلم كثيرا .. و ..
حاولت أن تنظر إليه بجانب عينها
- أحقا كنت تعرفها من قبل . ؟
وظل صدى صوتها يتردد خافتا ، حتى امتصه الصمت .. قالت :
- تشيع أنها عرفتك قبل أن تأتى إلى هنا.. و..وعرفت زوجتك أيضا ..
همس فى ضيق :
- أريد أن أنام
اكتسب صوتها نبرة إصرار عنيد
- أنا لم أصدقها .. ذكرت أيضا صديقك .. بطل حمل الأثقال .
انفتحت عينا الأب العظيم ، وظلتا شاخصتين إلى سقف الخيمة ..
استدارت الفتاة السوداء ووضعت يدها على صدره ، التمعت عيناها
- يبدو أنها كانت جميلة .. و .. ومثيرة

تدفق الإصرار من جوفها ، ناعما

- ويبدو أنه كان قويا .. وجريئا

مال وجهه ناحيتها ، نظر فى عينيها .. ولم يتكلم . أسبلت عينيها وابتسمت فى ميوعة

- أتراني أشبهها حقا ؟

بدت ملامحه تتسع . وتفور .. أردفت :

- عيناى .. شفتاى .. عنقى .. أنظر جيدا .

تماوجت صورتها فى حدقتيه ، وهى تسعى إلى مكان الإثارة .

- يبدو أنك أحببتها بعنف .. و .. وكنت تغار عليها .. أليس .. ؟

ويقترب من النافذة فى حذر وينظر . صديقه بطل حمل الأثقال يقف أمام المرآه ، عارى الصدر ، يتخذ أوضاعا استعراضية ، تبرز عضلاته وتفصلها ، وهو يبتسم فى زهو وكبرياء ، ويدور ، ويتمايل ، ويشهق ، ويحملق فى المرآه .. وتنسكب فى أذنيه ميوعة ضحكتها ، وتقترب من الصديق وهى تهدهد شبقها الفاجر .. آه .. العاهرة ترتدى القميص الوردى، هديتى لها فى عيد زواجنا ، لم تلبسه لى أبدا .. وتلمس العضلات المنتفخة فى تلذذ مشبوب ، وتنبهر الشهوة فى عينيها ، وينبح سعارها الملتهف ، ما أروع أن يكون لى كل هذا ، لى وحدى .

ويحاول أن يمسكها . تفلت من بين يديه .. تتثنى وتتأود وترن ضحكتها الناعمة ، اللاسعة ، الهائجة.. ويتحفز .. ويندفع .. وتحاوره ، حول فراش الطفل .. ولدى .. يتلفت . يداه ورجلاه تتدافعان .. وينقض عليها . وتصيح .. ويفزع الطفل ويبكى .. ولدى .. ويشق القميص فى هياج ..

وتتعري تماما .. زوجتى .. ويحتويها بكل عضلاته .. يعتصرها فى نهم . ويتراخى جسدها ، ويستكين ، ويمتص النشوة فى شره محموم .. ويقول وهو يزيد الضغط عليها ..

- سأريك أن البقاء للأقوى .

وتخمش أظافرها جلد ظهره وهى تتأوه

- أرنى إذن .

وينقلب الطفل على بطنه ، ويبكى .. ولدى .. ويرتميان على الفراش ، ويهتز الفراش فى عنف ، ويرتفع صوت البكاء ، وصوت التدفق اللاهث ، المتشنج ، وصوت استحلاب نشوة الغزو المنتصر ..

انتفض الأب العظيم واقفا . قامت فى تكاسل وظلت تؤرجح السوط بيدها . اختطفه منها وصفعها ، وقعت على الأرض . تطلعت إليه بعينين متألقتين ، والابتسامة تختلج بملامحها . ظل يلوح بالسوط وهو يبتلع همهماته المبتورة ، وقامته ترتفع ، وصدره يتمدد ، وخرج الصوت من بين أضراسه مطحونا ..

- فاجرة .. عاهرة

وأحدث السوط صفيرا مباغتا وهو يشق الهواء ، ويلسع الجلد الناعم

- آه

خرجت من جوفها آهة محمومة ، متلذذة .. وصاحت وهى تدور وتتلوى

- رحماك يا أبانا ، أريدها أن تلسعنى هنا ، وهنا .

وارتفعت الذراع الغيظة وهوت بالسوط ، والتف ذيله الناعم حول

البطن والأرداف .

- أوغاد .. كلكم أوغاد قذرون

- آه

وارتجف السوط عند قدميها مخضبا بآثار الدماء .. وظلت تشد شعرها وتعض ذراعها وتصيح :

- ماذا تنتظر . ؟ أريده أن يشويني ، أريده أن يشرح هذا الجسد .. هيا بكل قوتك .. هيا .

واتسعت عيناه ولمعتا ، وظل ذيل السوط يشق الهواء . ويرسل صفيرا وفحيحا مبتورا ، ويكوى الجلد ويحرق الدماء ، وهى تتلوى وتحاول أن تتعلق بالأشياء ، وتحاول أن تبتعد وأن تقترب ، وأن تقف ، وأن تتمرغ على الأرض ..

- آه .. آه .. آه

وسقطت وهى تعض لحمها النازف ، وتتنفس بأنفها فى صعوبة . وسقط السوط إلى جوارها . وسقط الأب العظيم على ركبتيه ، وتمدد على الأرض .

ظلت الظلال المتأرجحة تتمسح بالجسد المخضب بالدماء . وبالشعر المتنفض ، وباللحية النافرة ، وبالملامح المتصلبة .. وارتفع صوت التنفس المتشنج ، والهمهمة .. وزحفت إليه . ووضعت رأسها على صدره .. قالت فى إعياء :

- يومها لم أكن بلغت العاشرة

- ماذا قالت لك العجوز ؟

- لم أكن أحتمل ضربه العنيف فى مبدأ الأمر . وحاولت مرارا أن أبتعد عنه . ولكنى لم أستطع .

- دعك من هذا الآن .

- لقد تبلد جسدك ولم يعد يتألم كما يجب ، لم يعد يصلح . هكذا قال، وهز كتفيه ورحل عنى .

جمع خصلات من شعرها بين أصابعه وقال .

- أريد أن أعرف ، ماذا قالت . ؟

رفعت رأسها ونظرت إلى عينيه ، قالت وهى تبتسم فى استكانة .

- قالت : إن الأب العظيم رجلنا ، وملاذنا ، وحبنا الكبير .

أحكم قبضته على شعرها .

- وماذا أيضا ..؟

تضاحكت وأحاطت وجهه بيديها

- عجوز مخرفة

تمددت نظرته إلى سقف الخيمة، بينما يده تتهادى على تموجات شعرها.. همس :

- ولكنها لا تزال جميلة .

جفلت .. عادت وتماسكت

- تلك العجوز . ؟

لم يتكلم .. داعبت شعر صدره الغزير

- أتريد أن أحضرها لك . ؟

صمت لحظات ، ثم أردف

- أفعل عندما أريد

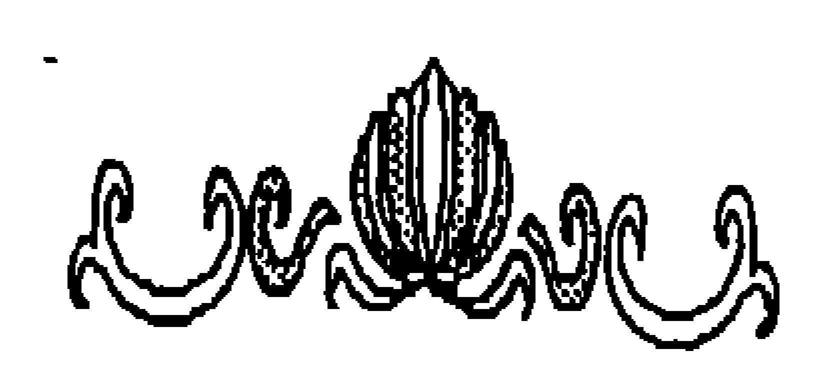
ارتمت عليه ونشطت حركات أطرافها وهى تحاول أن تحتويه .

- لتكن إرادتك الآن

ضمها إليه وهمس بصوت خافت :

- الغيبوبة أسمى أنواع المعرفة .

وتحركت الأيدى . وانحسرت الأثواب . وتداخل الجسدان فى سر وهدوء ..



٩



جلس الطفل أمام الخيمة ووضع الإناء بين ساقيه الرفيعتين . دار الكلب حوله وهو يهز ذيله ويزوم بصوت رفيع . وضع رجليه على كتفى الطفل وظل يلعق رقبته وأذنيه ، والطفل يضحك ، ويرتمى على ظهره ، ويضرب الأرض بقدميه ، والكلب يناوش أنفه وشعره وعينيه ، والطفل يصيح مرددا :

- انتظر .. سأطعمك

جلس الكلب أمام الإناء ونظر إلى الطفل . واعتدل الطفل ، والتقط قطعة لحم من الإناء ، وقربها من فم الكلب وقال :

- خذ يا حبيبى، اللحم يجعلك تكبر سريعا .

هم الكلب بالتقاط قطعة اللحم ، أبعد الطفل يده وضحك وصاح .

- ضحكت عليك

وضع الكلب رأسه على رجليه وأرخى جفنيه . مال الطفل عليه وقبله ، قال بصوت حزين :

- هل غضبت . ؟ أنا ألعب معك

واحتضن رقبته بيديه الصغيرتين

- لا تبك . سأحضر لك لعبا كثيرة ، وسأجعلك تركب الحصان معى . أتريد أن تأكل اللحم كله لكى تصبح كبيرا مثلى . ؟

ونهض ورفع ذراعيه إلى أعلى ، وهو يحاول أن يقف على أطراف أصابعه ، ويشد جذعه

- أنظر . أتريد أن تكبر هكذا . ؟

نظر الكلب إليه وحرك ذيله . ألقى الطفل قطعة اللحم ، وانتفض الكلب والتقطها . نظر الطفل ناحية الحصان وجرى وهو يصيح :

- بابا .. أريد أن أركب الحصان .

تعثرت قدم الطفل بحجر ، فوقع على الأرض وظل يبكى ويضرب الحجر بيده الطرية . ترك الرجل الطويل لجام الحصان وركض ناحية الطفل . رفعه فى لهفة ، وضمه إلى صدره وقبله وهو يردد :

- ماذا أصابك .. ؟ أرنى .. أين تشعر بالألم ؟

وجرى الكلب إليهما ، ودار حول ساقى الرجل الطويل وهو ينبح .. قال الطفل :

- أريد أن أركب الحصان .

مشى الرجل الطويل ووضع الطفل على ظهر الحصان وقال :

- أمسك هنا جيدا

تقفز الكلب وجلس على مؤخرة الحصان . ضحك الطفل ، وسحب الرجل الطويل لجام الحصان ومشى به بين الأشجار . صاح الطفل ..

- بابا .. دع الحصان يجرى ..

توقف الرجل الطويل ونظر إلى الطفل ..

- أخشى أن تقع ..

تباكى الطفل وضرب ظهر الحصان بيديه ورجليه وهو يردد ..

- أريد أن يجرى ..

قال الرجل الطويل بصوت منهزم ..

- لا تبك .. أمسك جيدا ، وسأجعله يجرى ..

ركض الرجل الطويل إلى الخلف، وهو يشد الحصان وينظر إلى الطفل.. والطفل يتأرجح ويضحك ، والكلب يتأرجح وينبح ، والرجل الطويل يلهث ويبتسم ..

حاولت المرأة العجوز أن تبتعد عن طريقهم.. نظر إليها الطفل وصاح ..

- أين قطتك يا جدتى .. ؟ هاتها تركب معنا ..

أشاحت المرأة العجوز بوجهها وقالت :

- لا أعرف ..

رفع الطفل يديه إلى أعلى وصاح ..

- بابا .. أنزلنى كى أبحث عن القطة ..

وجرى الطفل وجرى الكلب خلفه .. دقت المرأة العجوز الأرض بعصاها وقالت فى غضب :

- لم لا تبتعد بطفلك عن هذا المكان .. ؟

ظل وجه الرجل الطويل ساهما .. تساءل بصوت منخفض ..

- ولماذا .. ؟

ودارت المرأة العجوز حوله ، ورددت بصوت متكسر ..

- ألا تريد أن تعلمه ؟ ..

طأطأ رأسه وغمغم ..

- لا يهم .. أنا أعلمه ..

- الطفل لابد أن يلعب مع أطفال مثله ..

- أنا ألعب معه ..

صاحت من بين نواجزها المرتعدة ..

- أتريد أن تقتله .. ؟

أغمض الرجل الطويل عينيه .. غامت ملامحه ..

- أقتله ؟ !

أمسكت يده وهزتها ..

- لا أعرف ما الذى يمنع رجلا مثقفا وثريا مثلك من أن ينعم بحياته ، ويمتع امرأته وطفله الوحيد بمعيشة مريحة ومترفة .. !

واعتصرت عصاها بيديها المعروقتين ..

- ماذا تفعل هنا ؟!

وضع يديه على وجهه ..

- نروى الشجرة ..

رمشت بعينيها الضيقتين ..

- ماذا تقول ؟

أشاح بوجهه المتغضن واعتصر أصابعه الرفيعة .

- أنت لا تعرفين ..

اهتزت العصا تحت يديها ..

- لا أعرف ماذا ؟ ..

تيبست ملامحه ، قال بصوت ملتاع :

- مات الولد الأول .. وكان جميلا وشجاعا .. وفى نفس الميعاد ، مات الولد الثاني .. وكان حنونا وذكيا .. وفى نفس الموعد ، مات الولد الثالث .. وكان فنانا موهوبا ..

صاحت المرأة العجوز :

- ولماذا جئت إلى هنا .. ؟

بدا وكأنه لم يسمع صرختها ، أردف بصوت ذليل ..

- والآن، ولم يعد لنا سوى هذا الطفل.. والآن وقد اقترب الموعد..

قاطعته وهى تلوح بيدها المرتعدة ..

- جئت به إذن لكى تحميه من الموت ؟!

مسح شعره الأبيض بيده ، وطفرت الدموع من عينيه ..

- وماذا كنت أفعل ؟

أمسكت ذراعه وحاولت أن تجذبها إلى أسفل ..

- أتظن أن أحدا يمكنه أن يحجب الموت ؟

حاول أن يحتبس الصوت فى حلقه ، تسرب مسلوخا ..

- لا أريد أن يموت .. !

تلفتت حولها ، قالت بصوت منخفض ..

- إذن خذه واذهب من هنا ..

احتارت نظراته . استقرت على جزيرة بيضاء بين الغمام المعتم ..

- ولكننا نروى شجرة حياتة ، لكى تظل خضراء ، ويظل الولد ..

اهتز جسدها المنحنى فوق العصا ..

- أقول لك ، خذ الولد واذهب ..

- وكيف تنمو الشجرة ، وينمو الولد ؟

تنافرت ملامح وجهها وصاحت ..

- لا أدرى ماذا أصابكم .. !

اقتربت خطوات المرأة الطويلة ، متمهلة .. نظرت المرأة العجوز إليها ، وإليه .. أولتهما ظهرها ومشت ، وهى تحاول أن تبتلع غيظها ، وتزوم ..

- أين ذهبت عقولكم ؟!

وضع الرجل الطويل ذراعه على كتف المرأة الطويلة ومشى بها، سألها .

- هل أعددت الأوراق ..؟

أمالت رأسها وقالت :

- ذهبت بها إليه ولكنه لم يأخذها ..

- لماذا .. ؟

هزت كتفيها وتنهدت ..

- يقول ، لم نعد نحتاج شيئا ..

توقف . ونظر إلى وجهها ..

- وهل عرف مقدار الثروة ؟ ..

- قال . لا نريد أرضا ولا مالا ..

لوح بذراعه وزعق بصوت واهن ..

- أيريدنا أن نتركها للآخرين ؟ .. سأذهب إليه ..

احتارت نظرات القلق فى عينيها ..

- الأب العظيم مشغول ..

تساءل بصوت خافت :

- وهل كلمته عن الولد ؟ .. لقد اقترب الموعد ..

تسربت من بين جفنيها نظرة متعبة ، ناحية الأشجار .. قالت :

- علينا أن نزيد من رى الشجرة ، هكذا قال :

ومشيا متقاربين .. وتمدد الظل أمامهما يتمسح بالعشب الندى .. صهل الحصان وظل يضرب الأرض بحافره .. اقتربا من الشجرة .. تطلعا إلى جذعها وإلى فروعها وأوراقها ..

تقدم الرجل الطويل وتلمس رءوس الأشواك بأصبعه ..

همس ..

- تبدو نضرة ، وفتية ..

خلع قميصه وألقاه ، البثور البنية ، تملأ جلد صدره النحيف .. وخلعت المرأة قميصها ، بدا صدرها ضامرا مترهلا ، مخضبا بما يشبه النمش البرتقالى .. ضم كفيه أمام وجهه وأغمض عينيه وهو يلهج بهمس خافت.. وضمت المرأة الطويلة كفيها أمام وجهها وظلت تهمس بصوت مبحوح .. جذع الشجرة بينهما ، سميك تبرز من قشرته الداكنة رءوس أشواك حادة مدببة ..

شهق الرجل الطويل ومد ذراعيه ..



- الرب يرعانا ..
ومــدت المــرأة الـطـويـلـة ذراعيـها ، وتسـاقطت الدموع من عينيها ..
- الرب يـرعـــانا .. ويـرعى الولد ..
اقـتربـا من الجـذع .. الملامـح شـاحبـة ، والشـفـاه تلهـج ، وصـوت الأنفــاس يتـــردد خافتا ..
أحاطت ذراعاه بنصف الجذع، وأحـاطت ذراعـاهـا بالنصف الآخـر .. تلامسـت الأصـابع وتشابكت ، واقترب الصدران من رءوس الأشـواك ..

- الإرادة فوق الألم ..
- نرويك يا أمنا الخالدة .. من أجل الولد ..

تجاذبا ببطء .. اقشعر الجلد وهو يلامس رءوس الأشواك الباردة ..

- نور الرب يملأ الصدر ..
- لم يعد لنا سواه .. رحماك يا أمنا ..

تجاذبا فى عصبية ، غارت الأسنة الحـادة فى طبقات الجلد المرتعد، فقأت

الخلايا ومزقتها ، وهرأت أنسجة اللحم الميت والحى .. لامست عظام الصدر ، وخمشتها .. نزفت الدماء الدافئة ، وسالت متشعبة على الصدرين، تقاطرت من الأشواك حول الجذع .. وبلل العرق ملامحهما ، وابيضت شقوق العيون المسبلة .. وارتعدت الشفاه بهمس محموم ..

- الشجرة تكبر وتتمدد إلى السماء ..

- والولد يكبر وضحكاته تملأ المكان ..

ازدادت حمى العناق ، تهرأت خلايا الأعصاب ، وماتت حساسيتها ، وامتصت الأشواك دماء نابضة ..

تهادى صوت الصفير الحاد من بعيد ، وانسكب فى الآذان .. تماوجت الأشياء فى العيون ، وفقدت معالمها وألوانها .. جف الحلقان وتشققا . تمايلت أفرع الشجرة مع نسمة الهواء البارد ..

امتصت كتل الغمام شعاعات الغروب ، المتسربة من بينها إلى الأفق .. تراخت العضلات وهمدت .. انتزعا الجلد المتهرئ الدامى من الأسنة المشحوذة .. تحامل الجسدان على بعضهما وانحنيا ، تقاطرت خطواتهما المتخاذلة ..

من بعيد ، بدا شبح المرأة العجوز ينتفض فى حركات متشنجة . وعصاها ترتفع وتلوح ، وتهبط وتدق الأرض .. وصوتها الرفيع المتكسر يتطاير طائشا من حولها ..

- .. أين أنت ؟ .. ألا تسمعنى ؟ .. هيا اخلعوا خيامكم القذرة .. اذهبوا بعيدا عن أرضى.. لم أعد أطيق أفعالكم. ولا رائحتكم النتنة ..

توقفت الأقدام ، والتفتت الرءوس ، وانفرجت شقوق الخيام .. ونبح

الكلب وجرى ناحية الحصان ..

اقترب الفتى الجميل وحاول أن ينظر إلى المرأة العجوز .. صاحت فيه ..

- أين هو ؟ .. أين ذهب ؟ ..

- من ؟

اهتزت وهى تضحك فى سخرية ..

- أبوكم العظيم ..

تلفت الفتى الجميل وهز كتفيه .. جاءت الفتاة الجميلة وأمسكت يده .. صاحت المرأة العجوز ..

- حسن ، ليكن أينما يريد .. سأذهب لاستدعاء البوليس ..

ثم أردفت وهى تلوح بعصاها ناحية الأشجار ..

- وإياكم أن تمسوا الجثة قبل أن يحضروا ..

فوجئوا بالأب العظيم يقف بينهم ، يتطلع إلى السماء ويبتسم بوجه مشرق .. هرولت ناحيته وهى تزوم ، وتطحن شيئا ببقايا أضراسها .. تقابلت نظراتهما .. واعتصر صوتها غل مكظوم ..

- هذه المرة ، لابد أن يأتى البوليس ويرى الجثة ..

قرب الأب العظيم الصليب من شفتيه وهو يلهج بهمس خافت .. رفعه أمام الوجوه ، وبسط إليهم كفه الأخرى .. اتسعت عيون وضاقت عيون وهى تتطلع إليه .. شهق .. وقال بصوت عميق ..

- الرب يعلم .. الرب يدبر ..

رفع مصباحا واقترب من المرأة العجوز وهمس لها ..

- انتظرينى يا أختاه عند خيمتى ..

ومشى بخطوات مهيبة ناحية الأشجار ، وتحركت الأقدام وتبعته .. تطايرت أطراف الثياب وتداخلت الظلال خلف الأجساد .. توقف الأب العظيم ومد المصباح ونظر .. استطالت أعناقهم ، واتسعت عيونهم ..

كان مكوما بجوار الشجرة، الجذع ملتو والرأس بين الساقين، واليدان ممدودتان، والأصابع مفرودة ومتصلبة، وشظايا الخشب ملوثة بدماء جافة ..

همهموا بصوت خافت ورسموا إشارة الصليب على صدورهم .. اقترب رجل قصير وحاول أن يفتح العين وينظر فيها .. هز الأب العظيم رأسه وقال بصوت هادئ :

- اعلم أنه رحل ..

علق المصباح بفرع الشجرة ، ودار حول جذعها دورتين ، يداه على صدره وفمه يرتعد بهمس خافت .. توقف ، انكسرت الظلال على ملامحه وتردد صوته دافئا ..

- كان عندى منذ برهة .. رأيت جناحيه البيضاوين ينموان تحت إبطيه ..

التفت ناحية المصباح ، تلاشت الظلال بين الملامح ، وبدا الوجه مشرقا وملتمعا .. تدفق الصوت تهويمات متشنجة ..

- الشوق هائل للرحيل .. النفس سكرت بالمحبة ، واليقظة أرهقت الأجفان ..

أدلونى عاريا إلى جوف الأرض .. ضعونى بيطء على صدر أمى ، أريد أن أنام فى سلام ..

وأسند الأب العظيم رأسه إلى جذع الشجرة ، وتلاحق صوت أنفاسه

الخشنة . وكان المصباح من فوقه يهتز ، والظلال من حوله تتداخل وتتمدد وتنكمش ..

اندفعت المرأة الخفيفة من بينهم وصاحت فى حماس ..

- اشفه يا أبانا .. مد يدك إليه وأنهضه .. دعهم يرون قدرتك ..

تركزت النظرات على كيان الأب العظيم ، ولكنه لم يتحرك ..

لوحت المرأة العجوز بعصاها وصاحت فى سخرية ..

- أرنا قدرتك يا أبانا ..

هرولت المرأة الخفيفة ناحيتها وصاحت ..

- أتسخرين منى ؟ ..

بدا هيكل المرأة العجوز متفككا وهى تطلق ضحكتها الرفيعة ..

- أرنا كيف تحى الموتى يا أبانا ؟ ..

انهمرت الدموع من عينى المرأة الخفيفة ، وتقلصت قبضتاها ..

- قريبا يهدمك المرض ، ولحظتها تهرعين مستنجدة بيد الأب العظيم ..

دفعتها بيدها فى صدرها ..

- معتوهة ، ابتعدى عن طريقى ..

واقتربت من الأب العظيم وجذبت يده ..

- ماذا ستفعل ؟..

هامت نظرة الأب العظيم بين الوجوه الشاخصة إليه ، ثم تهادت عند جذور الشجرة ..

اقشعرت الأبدان عندما قال بصوت جهورى ..

- لقد اختار مكانه .. واختار شجرته ..

هاجت حركات المرأة العجوز وهى تلوح بيديها ، وبعصاها ، تصرخ فى وجه الأب العظيم ..

- أبدا .. ليس هذه المرة .. كفى ما حدث .. لابد من إبلاغ الشرطة ..

هجمت المرأة الخفيفة عليها واختطفت العصا من يدها ..

- كيف تجرؤين على مخاطبة الأب العظيم بهذه الطريقة ؟ ..

وأمسكت الفتاة السوداء كتفيها وحاولت تهدئتها ..

- انتظرى يا أماه .. إن الأب العظيم يعرف كيف يتصرف بحكمة ..

وقالت الفتاة الجميلة بصوت منخفض :

- دعوها تفعل ما يحلو لها ..

وقال الرجل الأصلع بصوت متوسل :

- رحماكم بالأب العظيم يا أبنائى ..

زعق الحارس فيهم وهو يعلق بندقيته على كتفه ..

- سأفعل أنا ما يلزم ، وليذهب كل لشأنه ..

صاحت المرأة العجوز وقامتها تنفرد وتنحنى ..

- لن أدعك تدفنه فى أرضى .. أتسمعنى .. لن أدعك ..

قال الحارس مصرا

- هيا يا أماه ..

تعلقت بثيابه وحاولت أن تختطف البندقية ..

- لست أما لوغد مثلك .. أنت سبب كل هذا .. لابد أن أقتلك ..

وتنازعت الأيدى البندقية فى حركات مخبولة .. اندفع الأب العظيم بينهما ، وفرد ذراعيه وقال فى ثبات :

اقتلينى أنا يا أماه ..

ارتفعت الهمهمات، وتجمعت حركة الأقدام، وضاقت الدائرة حولهم..

ظلت المرأة العجوز تتفحص الوجوه بنظرة ثاقبة ، وتلهث فى إعياء .. تركتهم ومشت وهى تزوم فى عصبية ..

تراجع الأب العظيم فى تمهل ، وقال بصوت مهيب ..

- لقد بدأ أخوكم رحلته ، وعلينا أن ندبر أمر وعائه ..

مشى الحارس وقال :

- سأذهب لإحضار ما يلزم ..

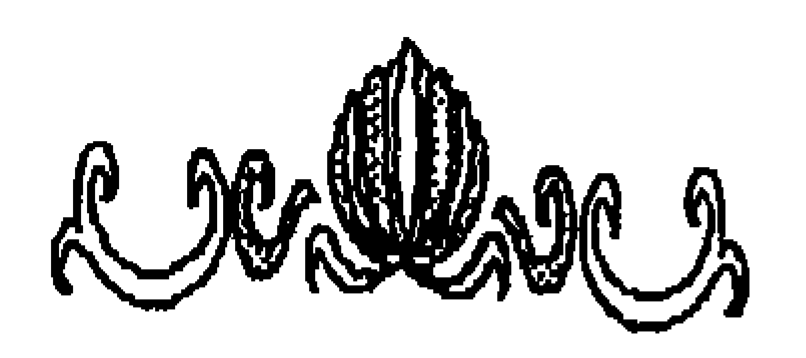
دار الأب العظيم حول الشجرة ، وتوقف أمام الرجل وظل صامتا .. انتفض صدره بغتة وخرج منه صوت متهدج ..

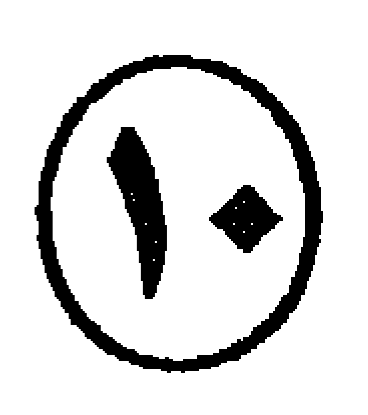
- هكذا يا أبنائى تبدأ رحلة البشر جميعا.. ولكن لكل منا نهايةمختلفة . ومكان مختلف ، ودرجة مختلفة ..

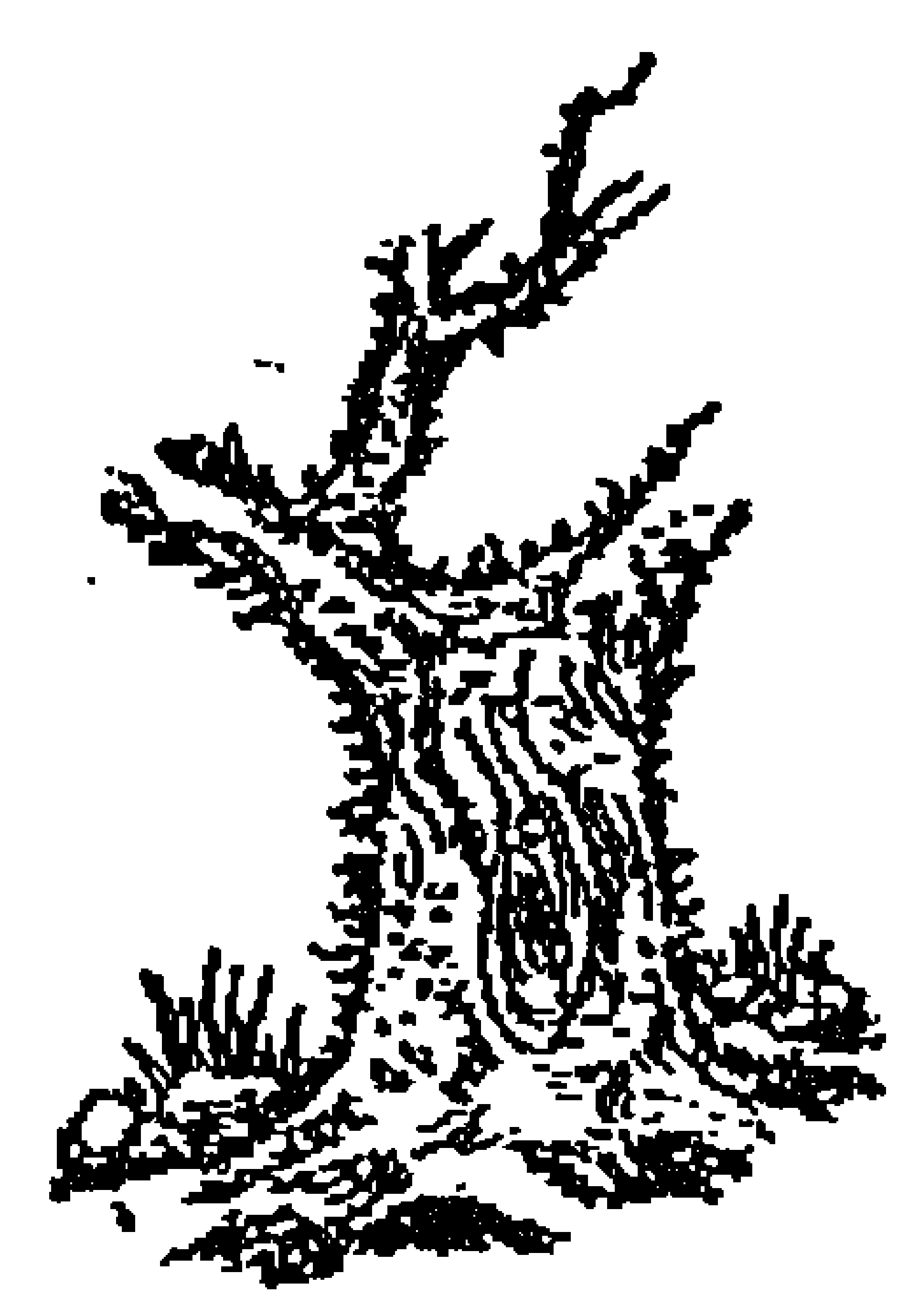
خشعت هامته ، وضم يديه إلى صدره ، وهمس فى حنان دافئ ..

- تقاربوا يا أبنائى .. تماسكوا .. صلوا معى للرب ..

وأسبلت الأجساد عيونها ، وأرهفت حواسها ، واستغرقت فى أداء الصلاة .







رفعت الفتاة الجميلة نظرتها عن اللوحة وسرحت بها فى الفضاء .. وضعت ذيل فرشاتها بين شفتيها وظلت تديره ..

قبة السماء ساكنة ، كالحة ، تنفث رمادا يتهادى على الأشياء ، يطمس معالمها بلون ضبابى قاتم .. هناك ، بدت الأشجار هامدة ، والخيام أكواما متماسكة ، ولا شيء يتحرك عندها ..

وضعت اللوحة جانبا وأشعلت سيجارة .. أسندت رأسها إلى جذع الشجرة ، ومدت يدها وتحسست رجل الفتى الجميل . قالت :

- لا أجد ما أفعل ..

لم يتكلم ، ولم يفتح عينيه .. أحست بالسكون يضغط على أذنيها .. فردت ساقيها ونظرت إلى قدميها الحافيتين وقالت :

- لى خمسة أصابع فى كل قدم .. لى بطن وصدر .. لى رأس وعينان وأذنان ..

أنا أجلس إلى جوار الشجرة.. وهو يستمع إلى الأنغام.. والجو مقبض..

وضعت كفيها حول فمها وصاحت ..

- الجو مقبض ..

أنصتت إلى صدى صوتها يتردد عند الأشجار ، ثم يتلاشى تدريجيا ..

ابتسمت وعاودت الصراخ .. مرة .. ومرة .. صفقت وقالت :

- صوتى عذب ..

ولكزت رجل الفتى الجميل بكوعها ..

- ألا تحب أن تسمع صوتى العذب ؟ ..

أجفلت ملامحه ، فتح عينيه ولم يبعد أذنه عن جذع الشجرة .. قال :

- ماذا ؟ ..

ثم عاد فأغمض عينيه ، وهامت ملامحه .. دفعته بعنف وصاحت:

- ألا تترك هذه الشجرة قليلا لتستمع إلى .. ؟

لوح بيده وصاح فى عصبية ..

- ماذا تريدين .. ؟

ضربت الأرض بقبضتيها

- أن نلعب ، وأن نستحم ، وأن نتكلم معا ..

مال عليها وصاح :

- وأنا لا أريد ..

لطمت جذع الشجرة بيدها

- ألم يكفك ما سمعت..؟ ألم ترهقك هذه الوقفة طوال النهار والليل؟

أشاح بوجهه وقال :

- يمكنك أن تذهبى ..

مزقت اللوحة ، وألقتها بعيدا

- سأقتلع هذه الشجرة من جذورها .

احتضن الجذع بذراعيه وصاح فى هلع :

- لا .. كيف يمكنك !

هدأت أنفاسها وتراخى جسدها . تعلقت نظرتها بالربوة .. فتحت زجاجة صغيرة وأخرجت قرصين وابتلعتهما . أغمضت عينيها وظلت تنصت إلى صوت الصمت ..

ألقى الحارس بالإناء جانبا، وتحسس بطنه المنتفخ وتمطى، وتثاءب.. وقف وتطلع إلى الخيام وإلى سياج السلك الشائك وإلى البوابة الكبيرة . جلس ووضع البندقية على ساقيه وظل ينظفها بيديه المتسختين وهو يصفر بشفتيه ..

لمح شبحين يسرعان نحوه . وقف ودقق النظر إليهما . الفتى النحيف والمرأة الشقراء يلهثان ويتلفتان . جلس وعاد يصفر ويهز رأسه فى نشوة .

قالت المرأة الشقراء للحارس وهى تعتصر كفيها :

- سنخرج ونعود قبل الصباح .

تطلع إليهما ، ثم عاود الصفير .. انحنت عليه وقالت :

- ألم تعدنى بذلك . ؟

أومأ إلى الفتى النحيف وقال :

- وهو . ؟

همست وهى تبتسم :

- سيعطيك ما تريد .

وقف وحمل بندقيته على ظهره وقال :

- سأحصل لكما على موافقة الأب العظيم .

تعلقت به وقالت بصوت مضطرب :

- ولماذا تخبره . ؟ مادمنا لن نتأخر .

نظر إليهما فى خبث ..

- وممّ تخشيان ؟

قال الفتى النحيف وهو يحاول أن يتماسك :

- كنا نستطيع أن نخبره نحن .

أولاهما الحارس ظهره وقال :

- لا بأس هيا نذهب إليه .

ارتمى الفتى النحيف على المقعد وصاح :

- ألم أقل لك نخرج سرا . !

ضحك الحارس ولوح بيده

- وماذا يمنعكما ؟ .. صواعق الأشجار .. أم .. ابتلاع الأرض . !

تعلقت بذراعه وقالت فى توسل :

- ليست المسألة أبدا كما تظن .

التفت الحارس ناحية الكوخ ، مد عنقه وركز بصره ، قال :

- انتظرانی هنا .

وهبط الربوة مهرولا ، وبندقيته تتأرجح وترتطم بظهره .. خرج من البوابة ونظر إلى الطريق .

رجع ودفع باب الكوخ ودخل . جمعت المرأة العجوز بعض الأوراق المبعثرة على المنضدة ووضعتها فى الصندوق .. اقترب الحارس ووضع يده على الصندوق وقال :

- ماذا تفعلين ؟

دفعت يده وحملت الصندوق وابتعدت ..

- لا شأن لك .

ركن البندقية إلى الحائط ومشى خلفها

- وصاحب الأنف الطويل ، ماذا كان يتشمم هنا .؟

وضعت الصندوق فى الدولاب وأغلقته بالمفتاح

- لا شأن لك .

ثم التفتت إليه وصاحت

- ماذا تريد ؟

أخذ تفاحة وقضم منها ملء فمه ، ظل يلوكها بصوت نهم .

- فقط أريد أن أحذرك .

دفعته بيديها المعروقتين

- ماذا أتى بك . ؟ أخرج من هنا .

تراجع وهو يضحك ، جلس ووضع رجليه على مقعد مقابل .

- أنا ولدك الوحيد ، ومن الخير لك أن تستمعى إلى نصيحتى .

دفعت رجليه وصاحت :

- ابعد رجليك المتسختين عن المقعد .

أمسكها من يدها وقال :

- رجل البوليس هذا ، يسعى إلى إفساد حياتنا ، إلى تدميرنا ، ألا تفهمين .. ؟

ضربت صدره بيديها المرتجفتين

- بل أنت الذى تحولت إلى كلب مسعور ، أنت الذى أفسدت حياتى ودمرتنى ..

انتفض واقفا وأمسك كتفيها وهزهما .

- ألا تشبعين . ! ألم تكفك كل هذه الثروة التى جمعتها من ورائهم . ! لماذا تحاولين الإيقاع بهم . !

رفعت يديها وحاولت أن تتعلق بعنقه ، تلاحقت أنفاسها وتحشرج صوتها

- لابد أن أقتلك .

دفعها بيده ، فارتمت على المقعد ، وارتطم رأسها بظهره ..

- بل أنا الذى سأخرس صوتك البغيض .

حاولت أن تقف ، ولكنها لم تستطع . ارتعدت ملامحها وهى تحملق فيه بعينين يعتصرهما الغيظ .

- لتعلم جيدا أننى سألقى بهذه الجيفات النتنة بين أنياب لا ترحم، وسترى بعينك كيف ينهشون لحم هذا الأب العظيم ، وكيف يمتصون نخاعه. وبعدها أعرف كيف التفت إليك جيدا .

ضحك بصوت خشن . قضم من التفاحة . اقترب من المرأة العجوز ومال عليها وظل يتأمل وجهها . قال وهو يدفع التفاحة إلى فمها :

- أتريدين أن تأكلى الأب العظيم . !

هاجت أطرافها وهى تجاهد فى الوصول إليه .

- ابتعد أيها القذر .

تراجع وهو يضحك ويؤرجح ذراعيه .

- لقد جنت المرأة . تريد أن تأكل الأب العظيم .

وضعت وجهها بين يديها ، تكوم جسدها الممصوص إلى جانب المقعد ، قالت بصوت مكدود :

- لم أعد أطيق هذه النجاسة فى مزرعتى .

التقط بندقيته وقال :

- أحقا تعنين ذلك .. يا أماه .

واقترب من رأسها وهمس :

- أم أن شيطانك الخبيث ينصب شباكا مبتكرة ، أكثر إحكاما .

رفعت رأسها ونظرت فى عينيه .. ونظر فى عينيها .. قالت :

- لماذا لا تدع هذا المكان ، وتذهب ؟

تبلدت ملامحه

- لماذا لا تتركينى أمتلئ ، كما امتلأت أنت !

لانت ملامحها قليلا ..

- سيأتى رجال البوليس غدا ، وهذه المرة قد تنشب معركة .

دق الأرض بكعب البندقية وصاح :

- فعلتها إذن !

دار حول مقعدها وهو يزوم :

- لن يطأ أحد هذه الأرض إلا فوق جثتى .

وضع يده على رأسها وهمس فى سخرية :

- يبدو أنك لا تخافين صواعق الأشجار ، أو ابتلاع الأرض ..

اتجه ناحية الباب وهو يضحك ، ويؤرجح بندقيته على ظهره . خرج وصفق الباب خلفه .

امتص الأفق الباهت قرص الشمس ، وبقايا شعاعات شاحبة تسربت بين جذوع الأشجار . اقترب شبح الحارس من خيمة الأب العظيم . كان جالسا وأمامه كتاب مفتوح . مال الحارس ناحية الأب العظيم وتكلم بصوت منخفض ، وأشار بيده ناحية الكوخ . قام الأب العظيم ووضع ذراعه على كتف الحارس ومشى به ، خطوات متمهلة حول الخيمة . توقفا وتواجها .. هز الحارس رأسه عدة مرات ، ثم انطلق بين الأشجار وهو يصفر .

دخل الأب العظيم خيمته . أضواء المصابيح تلتمع تدريجيا على الأشياء. أسند الحارس ظهره إلى جذع شجرة وتطلع إلى الفتاة الجميلة . تحتضن فرع شجرة وترقص به . فى نشوة ناعمة . تقدم وجذب فرع الشجرة وألقاه بعيدا واحتضن الفتاة الجميلة بكلتا ذراعيه، وظل يرقص بها . بدا عليها التخاذل والإعياء ، وهى تجرجر رجليها ، بين رجليه . دفعته بيديها وتملصت من حصار ذراعيه ، وظلت تصفق وتضحك فى هستيرية . أمسكها وجذبها إليه وقال :

- هيا نصعد الربوة .

وقعت نظرتها على البندقية . جرت وأخذتهـا وصوبتها ناحية الشجرة .

هرول إليها واختطف البندقية وصاح :

- أتريدين قتله ؟

ترنحت وهى تشير بيدها ، رددت بصوت مترنح :

- أريد أن أقتل الشجرة . هذه الشجرة .

أحاط خصرها بذراعه .

- ولماذا . ؟

ترقرقت الدموع فى عينيها

- ألا ترى كيف يلتصق بها ؟

هز كتفيه ، وحاول أن يبتعد بها

- لنتركه وشأنه

ضربت الأرض بقدميها

- لابد أن أقتل هذه الشجرة .

انتبـه الفتى الجمـيل ونظر إليهـما . بدت ملامـحه شاحـبة ، ومتـهدلة .. التـقط علبة عـصيـر وأفرغهـا فى جوفـه ، ابتسـم لهما ، ثـم احتضـن جذع الشجرة وألصق رأسه به . أحاط الحارس وجه الفتاة الجميلة بيديه المتسختين وهمس :

- لن تستطيع قتلها .. إن جوفها مليء بالصواعق .

لوحت بذراعها وصاحت :

- أتحسبنى أصدق ؟

شرع أصبعه وهزه أمام وجهها .

- ومن يقترب منها يظل ملتصقا بها حتى تمتص نخاعه .

رددت فى عصبية

- كذب .. كذب

اتسعت ابتسامته

- لقد حدث بالفعل ، ورآه الجميع .. ألم يخبرك الأب العظيم ؟

همت بالجرى ، فأمسكها وضمها إليه .

- سأذهب للأب العظيم .

- انتظرى . ماذا تريدين منه ؟

دفعته بكلتا يديها وهرولت ناحية الفتى الجميل . ظلت تجذبه وتمزق ملابسه وتصيح :

- لا تلتصق بها هكذا . هيا نخرج من هنا

تشبث الفتى الجميل بجذع الشجرة وهو يردد فى هستيرية :

- لا .. لن أذهب .. لن أترك شجرتى .

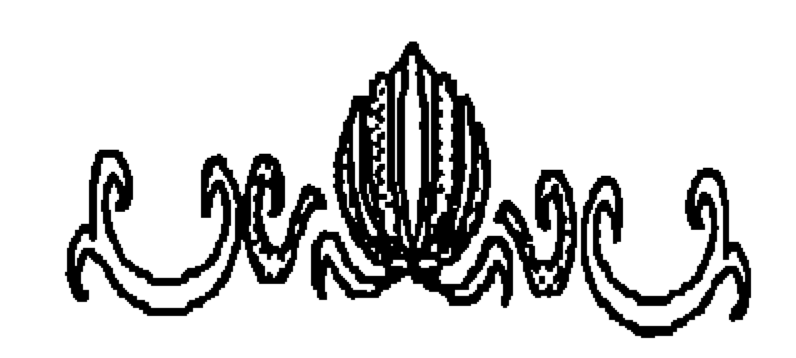
علق الحارس بندقيته على كتفه وضحك . صاحت الفتاة الجميلة وهى تلهث :

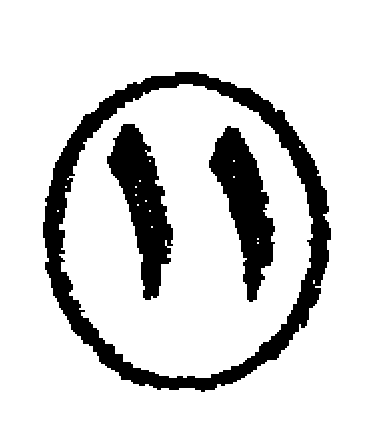
- سأحضر فأسا وأقتلعها بيدى .

وهرولت ناحية الخيام . اقترب الحارس من الفتى الجميل ، ونظر إلى وجهه ، وربت على ظهره ، وقال فى سخرية :

- حاول أن تحتضنها جيدا .

ثم تركه واتجه ناحية الربوة وهو يصفر ويهز رأسه .







أطاح الطفل بكرته الصغيرة ، وقعت بعيدا وتدحرجت بين جذوع الأشجار .. جرى الكلب الأبيض ناحيتها ، لاهثا نابحا .. ضحك الطفل وصاح :

- هاتها بسرعة

لمح الطفل الحارس واقفا بين الأشجار ، مصوبا بندقيته ناحية الكلب . جرى الطفل وتعلق بملابس الحارس وهو يصيح مفزوعا :

- لا تضرب كلبي .

اهتزت يد الحارس ، وانطلقت الرصاصة وثقبت جذع الشجرة ، ووقع الطفل على الأرض ، وجرى الكلب واختفى . ركل الحارس الطفل بقدمه وصاح في غيظ :

- المرة القادمة سأصوبها إلى رأسك أنت .

تكوم الطفل ونادى :

- بابا .. بابا

اقترب الرجل الطويل منهما ، مهرولا ، لاهثا ، اختطف طفله وضمه إلى صدره .

- ماذا حدث ؟

تشنج الطفل ودفع رأسه فى صدر أبيه ..

- يريد أن يضرب كلبى .

انكسرت نظرة الرجل الطويل وهى تصطدم بعيني الحارس . هدد بيده المتسخة بينما يصيح بصوت متعجرف :

- لقد حذرتكم من قبل ، مرارا سكب هذا الكلب اللعين طعامى .

احتارت نظرة الرجل الطويل

- متى .. أين .؟

لوح الحارس ببندقيته

- كلما صعد الربوة .

تعلق الطفل بكتفى أبيه وزعق :

- مرة واحدة ، والكرة هى التى أوقعت الإناء

دفع الحارس يده ناحية الطفل

- أتكذب ؟

تراجع الرجل الطويل وهو يحكم ضم الطفل إلى صدره ، ويردد فى ذعر :

- لا تقترب .. لا تلمسه .

هرولت المرأة الطويلة ناحيتهم . تحسست رأس الطفل وظهره وساقيه ،

وقالت بصوت لاهث :

- ماذا حدث للطفل ؟

علق الحارس بندقيته على كتفه ، قال وهو يكز على أنيابه :

- إذا اقترب أحدهما من الربوة ، فلن يعود إليكم .

مشى الرجل الطويل حاملا الطفل ، ومشت المرأة الطويلة إلى جواره ، منكسة الرأس . جاء الكلب الأبيض ، وظل يتمسح بالأرجل ، ويتشممها ، ويعوى بصوت خافت .. قالت المرأة الطويلة :

- لا أعرف لماذا يريد أن يقتله !

أفلت الطفل من ذراعى أبيه، واحتضن الكلب وقبله . هز الكلب ذيله والتفت ناحية الربوة ونبح ، أمسكت المرأة الطويلة يد زوجها وقالت :

- ما رأيك فى العودة ؟

تطلع الرجل الطويل إلى وجهها ولم يتكلم ، بدا الصدأ فى عينيها ينحسر قليلا

- اشتقت إلى بيتنا

أومأ إلى الطفل

- والولد ؟

تواثب صوتها لينا

- لقد فات الموعد ، يبدو أن الرب تركه لنا هذه المرة .

همس فى شرود :

- والشجرة !

لاحقته

- سنأتى لها

جرى الكلب ناحية الخيام ، وجرى الطفل خلفه . وضع الرجل الطويل ذراعه على كتف زوجته ومشيا ، تلاشى صوت همسهما تدريجيا .

قرب الأب العظيم الزجاجة من المصباح ونظر إليها ، تألقت السعادة فى عينيه . رج الزجاجة عدة مرات وابتسم .. وضعها ، وتناول ورقة وظل يقرأ الأسماء المدونة عليها بصوت خافت . اقتربت همهمات المرأة العجوز من شق الخيمة . فتح الأب العظيم الدرج ووضع الزجاجة والأوراق .. ضم يديه إلى صدره وأغمض عينيه ونكس رأسه ..

دخلت المرأة العجوز . فردت قامتها قليلا وظلت تحدق فى شفتى الأب العظيم وهما تلهجان .. دقت الأرض بعصاها وقالت :

- أريدك أن تستمع إلى جيدا هذه المرة

لم يتحرك ، وظل صوت الهمس الناعم يتدفق من بين شفتيه . هزت رأسها وقالت فى تأن :

- حسن ، سأقول ما عندى ، ويمكنك أن تستمر فى مزاولة لعبتك الساذجة ، ولكنى أعرف أنك تنصت جيدا لما أقول :

- اقتربت منه قليلا وأردفت :

- أولا ، أريدكم أن تتركوا أرضى .. ثانيا ، أريد بقية نقودى .

ومدت عنقها المعروق وابتسمت فى سخرية :

- لقد احتطت جيدا لخبث حيلك ، ولن أعطيك فرصة المراوغة هذه المرة .

زم شفتيه ، وأرخى ذراعيه ، وشهق نفسا طويلا . التفت إليها وابتسم فى

وداعة :

- مرحبا بك يا أختاه

ضاقت عيناها ، وظهرت لثتها الحمراء وهى تقلد ابتسامته .

- أظنك سمعتنى جيدا

رفع يده أمام وجهها

- عندما يتجلى صفاء النفس ، لا نسمع بآذان الجسد ، ولا نرى بعيونه .

ركزت نظرتها على وجهه وضحكت

- يبدو كلامك مضحكا يا أبانا .

أردف فى خشوع مهيب :

- والضحكة البيضاء تغسل كدر القلوب .

دارت حول المنضدة وهى تدق الأرض بعصاها

- لا تحاول .. أصبحت أرى عريك ..

ضم يديه إلى صدره وتنهد :

- ونور الرب يستر دنس الأجساد ، ويطهر شوائب الأرواح .

خبطت المنضدة بيدها ، تطاير الغبار فوقها

- أتسمى هذه الجيفات النتنة أجسادا وأرواحا ؟

اعتصر قبضته :

- لا يسخر من مخلوقات الرب إلا من أفسد الشيطان عقله .

وضعت عصاها فوق المنضدة وجلست فى استرخاء

- أصبت . لقد أفسد الشيطان عقلى . والآن أريدكم أن تغادروا أرضى.

أولاها ظهره

- كلها أرض الرب ، وكلها سماء الرب .
اهتز رأسها وهي تضحك بصوت رفيع
- أنا أتكلم عن أرضى أنا ، يبدو أنك لا تسمعنى جيدا
أسبل عينيه وقال بصوت خافت :
- تحل بركة الرب فى أى مكان تشاء
تمايل جذعها الأعجف
- وأنا سأطرد هذه البركة ، متى أشاء .
وضع يده الكبيرة على الكتاب
- يد الرب فوق يد الإنسان .
صاحت فى عصبية :
- أبعد يدك عن الكتاب .. ألا تخجل ؟!
ثم أمسكت عصاها ولوحت بها :
- لن تنطلى عليهم حيلك هذه المرة . لقد أخبرتهم بكل شيء . غدا يأتون ، ويكشفون كل جرائمكم ، ويعيدون لى أرضى .
جلس أمامها ووضع يديه على المنضدة ، قال بصوت هادئ
- ولم كل هذا يا أختاه ؟
وضعت يديها على المنضدة ، أمام يديه
- لأنى لم أعد أطيق
- ألا تصبرين قليلا ؟
- صبرت زمنا طويلا .
- أطلب فترة قصيرة ، لكى ندبر أمرنا ..

رمشت بعينيها وهى تمعن النظر إلى وجهه ، قالت فى إصرار .

- غدا ترحلون من هنا

قام وأحضر زجاجة وكوبين . ابتسم فى وداعة

- أنشرب كأسا يا أختاه

لوحت بيدها ، وتراجعت إلى ظهر المقعد

- لا أريد

مد يده بالكوب ناحيتها

- كأس واحد ينعش الصدر

أرخت جفنيها وهزت رأسها

- لا تحاول

أفرغ الكوب فى حلقه ، وظل ينقر المنضدة بأصابعه .. رفع بصره إليها وقال فى حنان .

- شغلتنا مشيئة الرب عن أن يتطلع كل منا إلى الآخر جيدا ، وأن يسعى للوصول إلى بذرة المحبة بداخله .. أتعرفين يا أختاه ، كثيرا ما يتكاثف الضباب ويحجب جمال الأشياء ، والأن يبدو أنه انقشع من بيننا ..

وضعت وجهها بين كفيها ، وقالت فى سخرية

- وهل توصلت إلى بذرة المحبة بداخلى ؟

أمعن النظر إلى عينيها ، وهمس بصوت ناعم

- يمكنك أن تريها بنفسك .. لا شك أنك لم تنظرى إلى مرآة صافية منذ فترة طويلة .

قام وفتح حقيبة ملابسه وأخرج مرآة صغيرة . قربها من وجهها وقال :

- هكذا أراد الرب لعينى أن تراك ، أن تذيب جلد الشيخوخة عن نضارة الشباب .. انظرى جيدا ، لكم كنت ومازلت فاتنة ، ومتألقة .

تطلعت إلى المرآة بعينين متسعتين ، أبعدتها عن وجهها، وقربتها ، وهى تتمايل ، وتقلص ملامحها ، وترخيها ، وتفتح فمها ، وترمش بعينيها . ابتسمت وقالت فى ميوعة :

- يبدو أننى ما زلت جميلة .

تنهد منتشيا .. وضع يده على كتفيها وهمس :

- ألم أقل لك ؟

ألقت رأسها إلى الوراء ونظرت إليه

- أتريد أن تدخل من هذا الباب .. ؟

تراجعت يده

- أى باب ؟

ابتسمت ، وعادت تنظر إلى المرآة

- حسن . ولم لا ندخل معا ؟

عادت يده إلى نفس المكان ، وتحسست عظام الكتف ، وجذور العنق

- أتركى فيض الروح يروى أعطاف الجسد ، فالوعاء الذى تتألق بداخله روح المحبة ، لا يتراكم عليه صدأ الشيخوخة .. هيا يا أختاه ، لنغمض أعيننا لحظة ، ونسقط فى ينبوع شبابنا ، ونغتسل بماء الخصوبة المتدفق .. رويدا رويدا يا أختاه .. تترطب الأغصان الجافة ، وتنشط فيها الفرحة ، وهى تستقبل ثمارا طال أمد انتظارها .

وضعت المرآة ، واتكأت على المنضدة بمرفقيها ، وظلت ساهمة ..

أشعل الأب العظيم شمعة ، وثبتها على المنضدة جلس أمامها وهمس بصوت دافئ :

- أحب أن أتأمل وجهك على ضوء الشمعة .

أمسكت يده الكبيرة بكلتا يديها وهمت أن تقبلها وهى تتباكى

- رحماك يا أبانا .. لم أعد أطيق .. لابد أن أعترف لك

اتسعت عيناه ولمعتا ، تمددت قامته العريضة .. وضع يده على رأسها وقال بصوت خشن :

- ابك يا أختاه . إن أذن الرب تقترب من صوت الباكى

نظرت إلى الشمعة وقالت :

- لم أكن أريد أن أتكلم ، ولكنى أجد نفسى تهرع رغما عنى لتلوذ برحاب صدرك الرحيم .. آه يا أبتاه ، لكم يؤلمنى هذا الأمر !

مال عليها وشجعها

- تكلمى يا أختاه ، وليغفر لنا الرب خطايانا

صمتت لحظات ، ثم قالت بصوت مبحوح

- كانت صديقتى لمدة طويلة . لم نكن نتزاور كثيرا ولكنها كانت تطلعنى على أدق أسرارها .. وعندما عرفت أننى سأترك المدينة لأعيش فى مزرعتى البعيدة ، بكت وأخبرتنى أن زوجها ينوى قتلها .. واعترفت لى بأنه فاجأها وهى تضاجع صاحبها .

سكتت،واختلست نظرة خاطفة إلى وجهه.. أردفت بصوت حزين:

- لم أرها منذ زمن طويل .. ولكنى عرفت أخيرا أنها اختفت .. أو قتلت .. ولكنهم لم يجدوا جثتها، ففشلت المحاكمة، وأفلت الجانى !

أطبق كفيه ، وهز رأسه

- وبعد يا أختاه ؟

رفعت رأسها ونظرت فى عينيه

- ولكن الجانى يحمل فى جوفه قطعة من جسد القتيل !

تراجع الأب العظيم إلى الخلف ، وهم بوضع يده على بطنه تماسك وابتسم .

- أى قتيل ؟

قامت المرأة العجوز وأسندت يديها على ظهر المقعد

- عرفت أن زوج صديقتى هذه اصطحب الصديق فى سيارته ، بقصد القيام بنزهة خارج المدينة . ولكن يبدو أن حادثا فاجأهما قبل أن يكمل الزوج خطة التخلص منه .

وسكتت المرأة العجوز ، ومشت فى هدوء ، ووقفت خلف الأب العظيم ، وقالت :

- وعندما أفاق الزوج ، أخبره الأطباء أن الصديق مات .. وأنهم اضطروا إلى استئصال قطعة من جوف الصديق ، ووضعها فى جوف الزوج ، لإنقاذ حياته .

التفت الأب العظيم ناحيتها .. تلونت ملامحه وهو يقول :

- وكان الصديق هذا بطلا فى حمل الأثقال ، أليس كذلك ؟

رفعت حاجبيها وتصنعت الدهشة

- يبدو أنك تعرفه

قام وضغط على المنضدة بكلتا يديه

- إذن ، فهذا ما أردت الاعتراف به

- مشت ووقفت فى مواجهته

- والآن .. ترى كيف يتصرف هذا الرجل

التقت نظراتهما

- أى رجل ؟

وضعت يديها على بطنها

- الذى يحمل فى جوفه قطعة من خيانة زوجته .. إلى أن يموت .. وحتى بعد أن يموت !

ظل ساهما . ارتعدت لحيته وهو يلهج بصوت خافت .. مطت عنقها وقالت بصوت مسلوخ :

- الست معى فى أنه قتل زوجته ؟

أحس بالعرق ينزلق على ظهره .. مد يده إليها وابتسم فى سخرية :

- يبدو أن الأخت المخلصة أرهقت نفسها كثيرا ، فى جمع المعلومات .

طأطأت رأسها واختلست النظرات إليه

- ألم أقل لك أنها كانت صديقتى الحميمة !

تحرك الأب العظيم فى خطوات متمهلة ناحية شق الخيمة . دفع القماش بكلتا يديه ورفع رأسه وتنفس بعمق . هدأ فوران ملامحه . عاد إليها وقال :

- وما شأنك أنت بهذا الموضوع ؟

همست وهى ترمش بعينيها المعطوبتين

- لقد جاءتنى كثيرا فى المنام . وبكت ، وتوسلت أن أفعل شيئا من أجلها ..

وتعلقت بذراعه وهزتها

- ألا يغضب الرب أن نترك يد الغريق تصارع الأمواج ولا ننقذه ؟

ربت على يدها وابتسم

- لقد ساعده الرب ، بطريقة أفضل .

وضغط على يدها واتسعت ابتسامته

- أرجو يا أختاه أن لا يتمدد أنفك أكثر مما ينبغى

جذبت يدها

- لا تخف .. لقد تكلمت مع البوليس فى هذا الأمر .. وغدا يأتون إلى هنا

دار حول المنضدة وهو متبلد الوجه

- لن يمكنهم أن يفعلوا شيئا

ضحكت فى استخفاف

- لا .. سوف يفعلون الكثير هذه المرة .. أعدك بذلك

اقترب منهـا ، التصق بها ، أسقط نـظرته على رأسها الصغـير ، ركزها ، بدت ملامحه تفور وتضطرب ، رفع يديه فوقها وصاح :

- ماذا تريدين ؟

ارتمت على المقعد . أمسكته بكلتا يديها ، وقالت وهى تلهث :

- ويمكنك أيضا أن تصيح .. ولكنى لن أتراجع هذه المرة .

صب كأسا وأفرغها فى جوفه . أمسك عامود الخيمة بكلتا يديه وقال :

- سنترك لك المزرعة

قامت واتكأت على عصاها

- أريد نقودى

تحسس جبهته وزم شفتيه .. بدا يفكر .. قال :

- أخذ كل النقود

- من ؟

طوح يديه

- ابنك .. لقد اضطرنى لكى ..

قاطعته وهى تدق الأرض بعصاها

أتكذب ؟

قال بصوت هادئ :

- سأجمع لك غيرها .. غدا ، أو بعد غد

تطلعت إليه فى غيظ .. خرجت من الخيمة وهى تصيح :

- أبدا .. لن أتركها فى يد هذا النجس لحظة واحدة .

مشى فى هدوء وأخرج رأسه من شق الخيمة ، ترصد بعينين لامعتين شبحها المتشنج وهو يتجه ناحية الربوة .. عاد وفتح حقيبة ملابسه وأخرج صورة .. قربها من عينيه .. امرأة تحمل طفلا ، وجه الأب العظيم خلفهما ، بلا لحية ، يداه تحيطان بهما فى حرص وشوق . وجه المرأة مبتسم ، ووجه الطفل ضاحك ..المرأة تحاول أن تسيطر على رجليه المتدافعتين ، انتظر لكى لا تهتز الصورة ، وتضحك ، ورائحتها دافئة ، جامحة ، ويقبل عنقها فى نشوة .. ليتنى أستطيع أن أضع بداخلك كل سعادة العالم ، وتلتفت إليه ، الطفل يغار منك ، ويضمهما إليه ، لكم أحببت الحياة من أجلكما ، وتحدث الكاميرا «تكة» مفاجئة ..

وضع الأب العظيم يديه على بطنه ، حـركهما ، تقلصت أصـابعه وهى تعتصر الثوب والجلد المترهل والأمعـاء .. شحبت ملامحه وانبثق العرق من جبهته . لمعت الدموع فى عينيه .. بكى بحرقة .

– ليـتنى أسـتطيع انتـزاع هذه الجيـفـة من جوفى .. لا فـائدة .. تسـمم الجسد، وتلوثت الدماء بالسعار !

اختطف الصورة وظل [illegible] ـمها بقدميه الكبيرتين .





اتجه الرجل الطويل ناحية الدخان المتصاعد من بين الأشجار . رأى ألسنة النيران تلتهم الشجرة، والحارس يقف إلى جوارها .

ركض وزعق فى ذعر وهو يلهث :

- لماذا أحرقت الشجرة .. كيف تجرؤ ؟

تطلع الحارس إليه وضحك ساخرا

- أتهددنى .؟

دار الرجل الطويل حول الشجرة وهو يحفن الرمال ويلقيها على النيران. تساقطت الفروع المتفحمة على الأرض وتهشمت. تشقق الجذع المشتعل ونفث من جوفه دخانا أسود، تطاير الشرر إلى الرجل الطويل. أغرق الحارس فى الضحك وهو يتمايل بجذعه ..

- أرنى كيف تطفؤها .. هيا .. حاول أن تلقى مزيدا من الرمال .

هجم الرجل الطويل على الحارس وأطبق على رقبته

- لابد أن أقتلك .

دفعه الحارس في صدره فارتمى على الأرض وهو يرتعد . بكى وظل يضرب الأرض بيديه في يأس . اقترب الحذاء القذر من وجه الرجل الطويل . وضع الحارس يديه في وسطه وقال وهو شامخ الأنف :

- أتحاول مرة أخرى ؟

هم الرجل الطويل بالنهوض ولكنه لم يستطع . ظل يتأمل بقايا الشجرة ، وهى تحترق ، وتتفحم ، وتتحول رمادا .. ابتعد الحذاء القذر فى تكاسل ، وتدفقت من خلفه ضحكات السخرية .. تلاشى صوت النيران ، وظل الدخان ينبعث من بقايا الخشب المتفحم . اعتصر الرجل الطويل عينيه وسعل ، امتلأ صدره بالدخان .

اقترب صوت الطفل وهو ينادى ، مختلطا بصوت الكلب :

- بابا .. لماذا تنام على الأرض ؟

وارتمى الطفل إلى جوار أبيه وهو يضحك ويحكى بانفعال :

- بابا .. الحصان خاف من الكلب وجرى واختبأ خلف الشجرة . ولكن الكلب رآه ، ونط على ظهره . الكلب شاطر يا بابا . أتحبه مثلى ؟

أمسك الرجل الطويل طفله من كتفيه وظل يحدق فيه ، ويقبله، ويضمه فى لهفة .

جرى الطفل ، وقام الرجل الطويل ومشى خلفه ..

دخل الرجل الطويل خيمته وهو يزعق فى عصبية

- أى حمق .. أى غفلة .. أين كانت عقولنا ؟

هبت المرأة الطويلة من فراشها مذعورة

- هل أصاب الولد مكروه ؟

جلس إلى جوارها

- القدر .. رأيته بنفسى يحرق الشجرة

تعلقت بكتفه :

- من ؟ .. أى شجرة ؟

دخل الطفل وارتمى على رجلى أبيه وهو يضحك . حمله وتأمل وجهه وقبله .

قال الطفل :

- هيا نلعب

ضمه إلى صدره وهدهده

- ستذهب إلى المدرسة ، ستلعب مع أصدقائك ، ستمرح فى بيتك الكبير ، وستعيش دنياك

تألقت الفرحة بوجه الطفل وهو يصيح :

- ونأخذ معنا الحصان والكلب .

هز الأب رأسه موافقا . تملص الطفل من أحضانه وقال :

- سأذهب لأقول للحصان ، وأقول للكلب .

قال الأب محذرا :

- لا تبتعد عن الخيمة .

تقافز الطفل فى مرح وخرج . اقتربت من زوجها وقالت بصوت منخفض :

- ماذا كنت تقول عن الشجرة ؟

ربت عليها فى حنان وقال :

- لا تنزعجى ، إنه أمر بسيط ، ولكنه أفاقنى قبل فوات الأوان .

تساءلت بإصرار :

- ماذا حدث ؟

قام وتمشى حول فراشها

- رأيت الحارس القذر يشعل النار فى شجرتنا . جننت وعزمت أن أحضر البندقية وأقتله .. ولكنى شعرت بعقلى ينشط ، إذن هو الذى يحرق الشجر ، ويجعل الأرض تنشق وتبتلع .

ثم دنا منها ووضع يديه على كتفيها وقال منتشيا :

- لقد احترقت الشجرة تماما .. ورغم ذلك رأيت وجه الطفل يزداد إشراقا .. ألم ترينه ؟

طأطأت رأسها وقالت فى تردد :

- ولكنى أخشى ..

ضمها إليه وقال مقاطعا :

- لا أريد أن أسمع شيئا .

أرخت عينيها وهمست :

- أنجمع أشياءنا .؟

داعب شعرها وقال وهو ساهم الملامح

- لن نأخذ شيئا معنا .

***

ارتمى الفتى الجميل إلى جوار الفتاة الجميلة وقال فى ضيق :

- يبدو أن أذنى أصابها الصمم .

ضربت الفتاة الجميلة جذع الشجرة بكوعها .

- هل خذلتك شجرتك ؟

ألصق كفيه بأذنيه وأبعدهما عدة مرات ، ردد فى يأس :

- لا أسمع شيئا !

قالت الفتاة الجميلة فى استخفاف :

- وماذا تريد أن تسمع ؟

أطلق صفيرا منغما بشفتيه وصفق بيديه . انتفض واقفا وصاح :

- ماذا أصابنى ؟

قامت واحتضنت رأسه وضمته إلى صدرها . هدهدته فى حنان :

- أعياك طول الإنصات .

أغمض عينيه وتخدرت ملامحه .. ظلا صامتين .. سمع صوت الطائر الصغير ينقر الغصن بسن منقاره ، ويغنى لحنا متوثبا . وسمع صوت الماء يتدافع متماوجا عند الشلال الصغير . وسمع نباح الكلب يتطاير من بعيد . أبعد رأسه عن صدرها وأنصت ، توردت ملامحه بالدماء . تلفت منتشيا .. تواثب فى مرح وهو يطوح ذراعيه . تدفقت سعادة الطفل من عينيه . أحاط صدره بيديه وتمايل بجذعه .. تحررت صيحته وحلقت حول المكان

- من داخلنا تنبعث موسيقانا

وضرب الشجرة بقدمه

- لماذا خدعتنى ؟

وأمسك كتفى الفتاة الجميلة وهزهما بعنف

- أريد جيتارى .

اختلجت الفرحة وتألقت بملامحها

- حسبتك نسيته

أطبق أصابعه وفردها فى حماس

- سأعزف لحنا رائعا ، سأرغمهم على الإنصات ، سأجعلهم يعترفون بعبقريتى ..

اندفعت إليه ، وأحاطت بوسطه وضمته ، وظلت تتراقص به فى هياج ، وتضحك ، والدموع تطفرمن عينيها الملتمعتين .

- تصورت أننا انتهينا ، فقدنا القدرة على الحب .. أى سخف . ! هيا نطير ونرفرف ، نلحق بسعادتنا.

جذبها وجرى بها . دار بخفة حولها وهو يردد :

- أى سخف أبعدنى عنك !

واتجها ناحية الخيام ، وصوت ضحكاتهما يناوش أوراق الشجر ، ويداعب أجنحة الطائر الصغير ، ويختلط بصوت الشلال .

***

ضرب الحصان الأرض بحافره وهو يصهل ويهز رقبته الطويلة .. قبة السماء قشور فضية متكلسة ، تتداخل فى بطء عند الأطراف الرمادية ، وتتراكم وتتشقق فوق الأفق . تشع الضوء الشاحب الأصفر من بين الشقوق ، وانثال يلطخ ندف الضباب . تمايلت أغصان الأشجار ونفضت قطرات الندى من أوراقها ..

أرتدى الأب العظيمَ ثوبا فضفاضا مزركشا . جمع أشياءه ووضعها فى حقيبته الكبيرة ، وأشعل النار فى كوم الأوراق الممزقة . وضع التاج والكتاب والصليب والعصا على الفراش . دارت نظراته تتفحص أرجاء الخيمة . التقط فخ الجراد وهم بإلقائه فى الحقيبة . تراجع ووضعه مكانه .

دخل الحارس يتثاءب . نظر إلى بقايا النار وإلى الحقيبة المفتوحة وإلى الأشياءالمبعثرة . اقترب من الأب العظيم وقال :

- أتنوى الرحيل ؟

مزق الأب العظيم بعض الأوراق وألقاها فى النار

- إنه الخلاص لكل الكائنات

انتبهت ملامح الحارس

- متى ترحلون ؟

فتح الأب العظيم درج المنضدة ونظر بداخله

- عندما يشاء الرب .

تلفت الحارس وبحثت عيناه فى تلهف.. ارتبك الصوت فى حلقه ..

- ولكن ..

تطلع الأب العظيم إليه وهز رأسه .. انحنى وجذب الحقيبة الصغيرة من تحت الفراش وفتحها . رصدت عينا الحارس حركة يديه . أخرج رزمة أوراق مالية وقربها من وجه الحارس ..

- خذ هذا المبلغ مؤقتا

تجعدت ملامح الحارس

- ولكنك وعدتنى ..

قاطعه الأب العظيم وهو يغلق الحقيبة فى عصبية

- ألا تنتظر قليلا ؟

حاصرت عينا الحارس حقيبة النقود

- أحقا أخبرت العجوز بأنك أعطيتنى نصيبها ؟

دفع الأب العظيم الحقيبة تحت الفراش

- سأعطيها أياه

صمت الحارس لحظة ، ثم قال فى سخرية

- سأنتظر قليلا

ووضع يديه على المنضدة وهم برفعها

- لم يبق سوى أن أنقل المنضدة

التقط الأب العظيم زجاجة صغيرة من الدرج وأخفاها فى ثوبه

- أين العجوز ؟

لوح الحارس بيده ناحية الكوخ

- هناك

- ألم تخبرها ؟

أجاب الحارس فى برود :

- لن تأتى

أومأ الأب العظيم برأسه ، ثم قال وهو ساهم الوجه :

- خذ المنضدة

حمل الحارس المنضدة ، وخرج من الخيمة ، جلس الأب العظيم على الفراش ، وأحاط رأسه بيديه ، وظل يتطلع إلى فخ الجراد .. قام ودار حول

عامود الخيمة . تعلقت نظرته بالتاج والكتاب والصليب والعصا . التقط حقيبة النقود ونظر خارج الخيمة فى حذر . صفوف المقاعد ، والمنضدة ، وظهر الحارس يبتعد . اندفع مهرولا ناحية الكوخ ..

***

وضعت المرأة العجوز الإناء على المنضدة وجلست . ظلت تقلب الحساء بالملعقة والبخار يتصاعد منه .. ملأت الملعقة ورفعتها وسكبتها فى الإناء عدة مرات . قالت فى ازدراء :

- لم يعد عندى كلام آخر

خمش الأب العظيم لحيته ، وعيناه ترقبان حركة الملعقة

- ليكن أسبوعا واحدا يا أختاه

قربت الملعقة من شفتيها ، ونفخت فيها ، وارتشفت الحساء ، قالت بصوت لزج

- الحساء ناقص الملح

جلس الأب العظيم فى مواجهتها ووضع الحقيبة على المنضدة وفتحها

- انظرى يا أختاه

اختلست من خلال البخار نظرات متلاحقة إلى الحقيبة . أردف الأب العظيم :

- المكان الذى سنذهب إليه لن يكلفنا شيئا . لمن إذن نترك هذه النقود ؟ سنجد هناك الطعام والشراب والمأوى ، لن نحتاج الحقيبة معنا

همهمت وهى متشاغلة بارتشاف الحساء والتطلع إلى سقف الكوخ..

- يبدو أن السقف يحتاج إلى تقوية ، قبل سقوط الجليد .

ضغط على النقود بكفه

- أنا أتكلم عن هذه النقود .

هزت كتفيها فى عدم اكتراث

- لا أريد سوى حقى

أغلق الأب العظيم الحقيبة واستند عليها بمرفقيه

- فلتكن من نصيب ولدك

تضاحكت وهى ترمش بعينيها الضيقتين

- ألم تعده بذلك ؟

تضاحك الأب العظيم وقرب الحقيبة من صدره

- أتصدقين هذا ؟

هزت رأسها ، وعادت ترتشف الحساء فى نهم

- لم أعد أصدق شيئا

مال بجذعه ناحيتها ، واتسعت عيناه

- بل سأعطيها بالفعل لمن يقدم لنا العون الأخير . ولكى تطمئنى سأعطيك الآن نصف ما بها.. و .. وبعد أسبوع أعطيك النصف الآخر .

مالت بجذعها ناحيته ، وقالت وهى تلوح بالملعقة :

- وبماذا وعدت ولدى ..قل بماذا وعدته .. ؟

تراجع الأب العظيم بظهره ، وظل ينقر الحقيبة بأصابع مضطربة

- لم أعده بشيء . ولست مسئولا عما يقوله لك .

- ولدى لا يكذب

لوح بيده الكبيرة قرب وجهها

- لقد أعطيته بالفعل ، فهل أخبرك ؟

ضربت المنضدة بالملعقة وصاحت :

- أقول لك ولدى لا يكذب

حاول الأب العظيم أن يتماسك وهو يخفى وجهه بين يديه . عادت ترتشف الحساء بصوت خشن وهى تتطلع إلى لحيته المهتزة . خرج همسُ الأب العظيم منهزما من بين كفيه :

- خذى الحقيبة الآن ، ودعينا أسبوعا واحدا

انفرد ظهرها ، انبسطت ملامحها .. قالت فى سخرية :

- ولماذا تضحى بكل هذا المبلغ ؟ أيخاف الأب العظيم من مواجهة الشرطة ؟

صمت الأب العظيم لحظات ، ثم قال :

- ما دمنا سنرحل بعد أسبوع ، فلم نثير المتاعب !

قالت فى استخفاف

- لن تكون هناك متاعب . لقد عرفوا كل شيء ، وهذه المرة سيتصرفون بحكمة .

أبعد الأب العظيم يديه عن وجهه وحملق فيها بعينيه المحمرتين

- ماذا قلت لهم ؟

هزت كتفيها

- كل ما أعرف

أخذ الكوب من أمامها وشرب منه

- وماذا تعرفين ؟

أخذت الكوب من أمامه وسكبت ما تبقى على الأرض

- ما تعرفه أنت

انتفخت ملامحه وتبللت بينما يضحك فى عصبية ويهز المنضدة بيديه

- تتكلمين جيدا يا أختاه .. والحديث معك يريح الأعصاب !

ثم بسط كفه أمامها وقال فى تودد :

- هيا نذهب إليهم . ألا تريدين أن تستمعى إلى كلمة الختام ؟

أمسكت بالمنضدة وهمت بالقيام

- لا أريد

دفع الحقيبة ناحيتها ، فارتطمت بالإناء

- احتفظى بالنقود عندك .

أمسكتها ، وقالت فى تهكم :

- يبدو أن عملك يدر عليك ربحا كثيرا

قام وتوقف خلفها ، ظل ينظر إليها وهى تعبث بقفل الحقيبة وتتساءل :

- ولكن لماذا تترك لى كل هذا المبلغ ؟

فتحت الحقيبة ووضعت يدها المعروقة على النقود . التفتت وحاولت أن تنظر إليه

- لو كان لك ولد ، لما ضحيت بهذه النقود !

أسند الأب العظيم يديه إلى ظهر مقعدها ، تهرأت كل انفعالات الملامح، ذابت فى قطرات العرق ، وبدا الوجه رخاميا أملس ، والعينان منكسرتين ، تجمدت فيهما نظرة منطفئة ، انطمست فيها حركة العجوز وهى تحصى النقود .. الطفل ..

والطفل يجرى ، ويصفق بيديه الصغيرتين ويضحك ، ويتعثر ويقع ، ويقوم ويجرى ، والأب العظيم يلاحقه ، يجرى على يديه ورجليه ، ويقلد صوت الكلب ، ويتحاوران حول أكوام القش ، يقع الطفل ويرتطم رأسه بالأرض ، يبكى ، يضمه الأب العظيم إلى صدره ويهدهده ويقبله ويجفف دموعه . ويظهر وجه صديق الأب العظيم ويقول ، التدليل يفسد الطفل . ويخفق قلب الأب العظيم ، لم يعد لى سواه !

وينفلت الطفل من بين ذراعى أبيه ويجرى ، ويقعد بجوار الشجرة ويعبث بلعبته .. يهم الأب أن يتوجه ناحيته . يمسكه الصديق ويقول ، دعه يصنع شخصيته ، وهيا نجمع القطيع . الطفل والشجرة يتباعدان عن عينى الأب ، تضيقان ، تجاهدان فى استماتة للاحتفاظ بصورتهما . يقول الأب ، سأصنع منه رجلا عظيما .. ويضحك الصديق ، بل هو الذى سيسلب عقلك . وتتلاشى الصورة فى عينى الأب، ويضيق صدره، أنت لا تعرف .. أصبح الخيط الوحيد الذى يصلنى بدنياكم .. ويفزع وجه الصديق وهو يصيح ، الجراد هناك ، وتحتبس الصرخة فى حلق الأب ، ولدى ! ويركض مسعورا ، وتتراجع الأشياء خلفه فى بطء شديد ، ويرتفع صوت الدق من قدميه ، ومن صدره ، ومن رأسه ، ويتعثر ، ويهوى جسده الثقيل ، وترتطم نظرته بالأرض ، ، ولدى ! وتبتعد الأرض المهتزة عن وجهه، ويجرى ، وخشونة لهاثه تخمش جوفه .. أسراب الجراد تحوم وتتساقط ، تملأ المكان . صوت أنيابها المسنونة تنهش الأشياء . يختطف اللعبة وتزوغ عيناه، ولدى ! ويهرول مخبولا حول الشجرة ، وحول أكوام القش ، وحول الكوخ ، وبداخله ، ويهرع إلى مكان الولد ، ويضرب الجراد بيديه وبرجليه ، والجراد

يدور حوله ويتساقط عليه ، وصوت طنينه يلسع أذنيه .. وتهمد أطرافه وتنسكب دموعه، ويلتقط البندقية ويطلق الرصاص على الجراد، ويصرخ وجه الصديق، وتعتصر ملامحه دهشة مرعوبة.. آه .. ويسقط على الأرض.. وتقترب الجرادة الكبيرة من الآب العظيم تتهادى بأجنحة تحجب الضوء ، وتجدف بأرجل تنشر الهواء ، وتبتسم بفم متشف ، وقواطع ملوثة بالدماء ، ويصوب البندقية إليها ويعتصر الزناد ، الرصاصة لا تنطلق ، وتبرز عينا الجرادة ، وتتسع ابتسامتها ، ويشتعل إصرارها ، وتسقط عليه ، وتمتلئ الدنيا بأجنحة متخابطة ، وبأرجل ناهشة، وبأفواه دامية ، ويظل يضرب فى خبل ، وهياج ، واستماتة .

ويلمح رقبة الجرادة تنتفض بين عينيه ، رفيعة معقدة شائكة ، يطبق عليها بأصابعه ، يعتصرها ، تحاول التملص، تصيح فى حشرجة ، دعنى أيها الوغد القذر، يتقلص الغيظ بيديه، يسمع صوت عظامها تتهشم ، يحس بنبض عروقها يخفت ، يتشنج ، يموت ..

انتفض الأب العظيم وهو يلهث .. انتبه . حملق مذهولا ، يداه مرتعدتان ، عنق العجوز منكفئ ، وجهها محشور فى إناء الحساء ، أطرافها هامدة ومدلاة، رزم الأوراق المالية مبعثرة فوق المنضدة ، وحولها ، وتحتها ..

تراجع الأب العظيم وارتمى على المقعد . ظل يجفف عرقه وهو يرقب باب الكوخ بعينين زائغتين .

***

ضاقت الفجوات الفضية بين كتل الغمام القاتم . تحرك الهواء الرطب متسللا بين الأشجار ، والخيام ، والمقاعد ، والأجسام . وضع الحارس يده

على قبعته وتطلع إلى صفوف الجالسين .. أومأ برأسه وقال بصوت منخفض

- كلهم موجودون ..

حمل بندقيته ودخل خيمة الأب العظيم . ارتفع صوت الهمس بين الرءوس . تساءل الرجل الأصلع وهو يسعل ويضغط على صدره بيديه المرتجفتين

- لا أعرف لماذا جمعنا الآن ؟

أرخى جاره قبعته على عينيه وقال :

- يشيعون أننا سنرحل عن المكان .

التصقت الفتاة الجميلة بجسم الفتى الجميل وهمست :

- هل أخبرته ؟

أومأ الفتى الجميل برأسه . نظرت ناحية خيمة الأب العظيم وأردفت :

- وماذا قال ؟

هز الفتى الجميل كتفيه وقال بعدم اكتراث :

- وماذا يمكنه أن يقول ؟ لقد أخبرته أننا سنرحل ، ولم أعطه الفرصة لكي يعترض .

تساءلت المرأة الخفيفة وهي تميل على جارتها وترمش بعينيها المعطوبتين

- هيه . وهل شفاه ؟

أشاحت الجارة بوجهها وقالت ساخرة

- شفاه ! .. هه .. يبدو أنه لم يشف سواك

همس الفتى النحيف للمرأة الشقراء

- لو اعترض هذا الحارس القذر طريقنا الليلة ، فسأعرف كيف أوقفه عند حده .

التقطت الفتاة البدينة زجاجة الخمر من تحت مقعدها ، وشربت منها ، وأعادتها ، نهضت وطوحت ذراعيها ، قالت والغصه تقطع صوتها الرفيع :

- من يرقص معى ؟ لم تجلسون هكذا ؟

أمسكتها الفتاة السوداء وأجلستها

- ألا تهدئى حتى يتكلم الأب العظيم !

جرى الطفل بين المقاعد ، وارتمى على رجلى أبيه وهو يصيح غاضبا :

- الكلب يختبئ فى البرميل ، وأنا لا أعرف كيف أختبئ مثله ..

خرج الأب العظيم من خيمته ، مرتديا «روبه» الفضفاض المزركش ، وعلى رأسه تاج محلى بفصوص ملونة . حرك عصاه الطويلة ومشى بخطوات مهيبة ناحية المنضدة . توقف إلى جوارها ، وظل يستعرض الوجوه بنظرة متأنية وهو يلهج بهمس مبحوح . رفع الصليب فى حرص وأومأ به فوق الرءوس ، قبله فى هيام وأعاده . اعتمد على عصاه بيديه الكبيرتين وقال :

- أبنائى أحباب الرب ..

من كان مطرودا من أمته .. منبوذا من وعاء آدميته ..

ملأت السماء روحه بالزيت المضيء ..

ورفعته لطيفا وسط العنف .. نقيا وسط الكراهية .. زاهدا وسط الأنياب المتكالبة ..

مشى حول المنضدة بخطوات متمهلة ، وملامح مدلاه

- أعرف أنكم عانيتم طويلا ، وقاومتم كثيرا ، حتى شفيتم ، وتطهرتم ، وقطعتم شوطا كبيرا في طريق الخلاص ..

وظل يضغط على بطنه بيديه ، وينشج بانفعال متزايد

- الخلاص يا أبنائى .. الشوق الهائل للرحيل .. تفريغ المحتوى من دنس الحيوانية .. من سعار الرذيلة ، والخيانة ، والغدر ..

وساحت نظرته فى الفراغ وهو يملأ رئتيه بالهواء

- الخلاص يا أبنائى .. التحرر الحقيقى من أغلال الصدور .

الراحة ، والاطمئنان ، والهجوع بعد السفر الطويل !

وتمايل بعصاه منتشيا ، وقال بصوت حالم :

- آه .. ما أمتع الرقاد فى أحضان الأبدية .. حيث تتخلص الصدور من كوابيسها .. والقلوب من مرارتها ..

تساءل الفتى النحيف فى قلق :

- ماذا يريد أن يقول ؟

ردت عليه المرأة الشقراء وهى تمعن النظر إلى مرآتها الصغيرة :

- يبدو مريضا

خرج الطفل من بين الصفوف وجرى مبتعدا ، همس الرجل الطويل لزوجته :

- لم لا نذهب ؟

تابعت المرأة الطويلة جرى الطفل ، وهمست :

- انتظر حتى ينتهى

استند الأب العظيم إلى المنضدة وقال بصوت متخاذل :

- لقد فعلت من أجلنا كل ما استطعت..

إن ألسنة الغدر لم تتباطأ لحظة ، وهى تلعق حصن أمننا ، لتقوضه ، وتنقض علينا ، وتفتك بنا .. فى تشفٍ ، وفى خسة ..

وطفرت الدموع من عينيه وهو يتصفح الوجوه فى إشفاق

- لقد أرهقت اليقظة أجفاننا ..

صدقونى يا أبنائى .. لم يعد هناك مفر ، سوى صدر أمنا الحنون، نتوسده ، وننام فى سكينة ، وراحة ، واطمئنان ..

وأغمض عينيه ، وبدأ الأرهاق يتراخى بملامحه .. هبت المرأة الخفيفة وصاحت وهى تبكى :

- أعانك الرب يا أبانا ..

تطلع إليها الرجل الطويل فى غيظ .. نهض وتساءل :

- وماذا بيدنا أن نفعل ؟

رد عليه الفتى النحيف :

- لنفترق حتى تهدأ العاصفة

قال الفتى الجميل وهو يعبث بجيتاره :

- فكرة صائبة

انتبه الأب العظيم ونظر إليهم فى دهشة ، واستنكار.. خرج الحارس من الخمية واختلس النظرات إلى الأب العظيم . مشى متخاذلا ناحية كوخ المرأة العجوز .

راقبته عينا الأب العظيم فى قلق .. قال بصوت متوتر :

- أبنائى .. لقد أصبح الوقت ضيقا و .. وحرجا ..

حاول أن يتماسك وهو يتجه إلى خيمته ويقول :

- آن لنا أن نفاجئهم بصفعتنا

تساءل الرجل الأصلع بصوت تتخاطفه شهقات السعال :

- نصفع من ؟ .. أين سنذهب ؟

تلفت الرجل الطويل قلقا :

- أين ذهب الولد ؟

لوحت المرأة الطويلة بيدها :

- يلعب عند البرميل .

صاحت الفتاة البدينة وهى تتمايل وتطوح الزجاجة بيدها :

- ألم يحن وقت الرقص ؟

داعب الفتى الجميل شعر الفتاة الجميلة وقال فى سعادة :

- هل أسمعك لحنى الجديد ؟

صفقت وقالت بفرحة طفولية :

- أخيرا .. لحنك الجديد !

خرج الأب العظيم من خيمته ، حاملا بين يديه صينية كبيرة ، عليها أكواب تهتز . وضعها على المنضدة وهو مطاطئ الرأس . بسط كفه فوق الأكواب ، وأدارها عدة مرات وهو يلهج بصوت مضطرب . تطلع إليهم . بدا وجهه رخاميا شاحبا

- الشفاء يا أبنائى .. الخلاص يا أبنائى !

اختلس نظرة خاطفة إلى كوخ العجوز ، ثم رفع كوبا وقال :

- شرابكم يا أحباب الرب .

هتفت المرأة الخفيفة وهى تبحلق إلى وجه جارتها :

- ألم أقل لك إنه سيشفينا كلنا !

قاموا ، وتحركوا فى تخاذل ناحية المنضدة . هرولت الفتاة البدينة وصاحت :

- أنا أولا .

ترجرج الشراب فى كوب الرجل الأصلع وهو يسعل بحدة . أخذ الفتى الجميل كأسين ، ومزجهما ، ثم اقتسمهما . ناول الفتاة الجميلة كأسها وهو يبتسم فى حنان . قال الرجل الطويل لزوجته :

- لا أريد .

ناولته كأسه وهمست له :

- لا تغضبه .

شربوا ، وعادوا إلى مقاعدهم ..

دار الأب العظيم حول المنضدة وهو يتحامل على العصا الطويلة .. توقف فجأة وألقاها بجوار المنضدة وحملق فى وجوههم.. تحسس بطنه ، اعتصرها بيدين مرتجفتين ، تشنجت ملامحه وانفجرت فى ضحكة هيستيرية . انقطعت الضحكة فجأة وتعقدت الملامح وغامت .. تواثبت النظرات من عينيه ، زائغة ، منتشية ، مرعوبة ، متوسلة .. مد كفيه وظل يقلبهما فى تخاذل .. سجدت نظرته عليهما فى حسرة . عاد يضحك ، وصاح فيهم بصوت لاهث :

- لقد وضعتكم فى جوفى ، كلكم ، وأشعلت فيه النار !

تبادلوا نظرات الدهشة ، تجمدت حركتهم ، دق المنضدة بعنف :

- أعرف جيدا طريق الخلاص .. ولقد أخذتكم إليه بالفعل !

تباكى وهو يتمايل فى هيام :

- لقد أشفقت عليكم من لحظة التردد ، وقسوتها ، فأنتم طيبون ونظفاء. وكان صديقى بطل الأثقال طيبا ونظيفا .. وكان الجراد طيبا ونظيفا . وكانت العجوز طيبة ونظيفة ..

خشعت عيناه وابيضتا ، ونزف الصوت من جوفه :

- أما ولدى ، فقد كان شريان حياتى .. ولقد قطعتم هذا الشريان، بلا رحمة !

تساءلت المرأة الشقراء ؟

- نحن قطعنا شريانه ؟

ابتسم الفتى النحيف فى سخرية :

- الرجل يهذى .

انتفضت الفتاة البدينة وسقطت الزجاجة من يدها .. دارت عيناها وتدفق منهما تساؤل مرعوب .. صاحت .. تقلصت ملامحها وانسحبت منها الدماء . ارتمت على الأرض وظلت تتلوى وتضرب المقاعد بأطرافها .

هرعوا إليها فزعين ، متدافعين .. رفع الأب العظيم يده وصاح بصوت خشن :

- دعوها ..

تجمدت حركتهم وهم يتطلعون إليه . أردف بصوت رقيق :

- دعوها تنام فى هدوء .. و .. ولينظر كل منا إلى ما يحب ، نظرته الأخيرة !

ارتجف خفقـان القلوب ، شحبت الوجوه ، ارتعـدت الشفاه ، انسكبت المرارة فى الحلوق .. عضت الفتاة البدينة رجل المقعد وهى تعوى ، وساقاها تتدافعان .. تخـاذلت حركتها .. انتفضت .. شـخصت عيناها فى رعب .. وانطفأت فيهما الحياة .

هرول الرجل الأصلع ناحية خيمته وهو يسـعل ويتألم ، سـقط على بابها، وانخفض صوته ..

أطبقت المرأة الطويلة على كتفى زوجها وهزتهما وهى تصيح :

- ولدى .. أين ولدى ؟

تخبلت حـركـات الرجل الطويـل . انتبه الأب العظيم ، رفع كـوبا ، تلفت، ونادى على الطفل ، صـرخ الفـزع فى عينى أمـه ، اندفعت صـوب الأب العظيم ، مذبوحة الصوت :

- لا .. إياك أن تقتل ولدى !

ارتمت الفتاة السوداء على الأرض ، نهشتـها بأظافرها فى غل مسعور ، بينما تردد :

- فعلها النذل .

هرول الرجل الطويل بين المقاعد ، وبين الخـيام . سقطعت المرأة الطويلة عند قدمى الأب العظيم وهى تتلوى وتبكى بحرقة :

- دعه يحيا .. !

تراجع الأب العظيم مبتعدا عنها . قـال الفتى الجميل بينمـا يحملق فى وجه الفتاة الجميلة :

- ولكنى لم أسمعك لحنى الجديد !

تركها وجرى إلى خيمته وعاد بالجيتار . جلس على الأرض وجذبها إلى جواره . صاحت المرأة الخفيفة وهى تتقلص وتنتفض :

- لم لا تشفنا يا أبانا ؟! رحماك بنا يا أبانا العظيم .

توترت أصابع الفتى الجميل وهو يعزف .. انكفأ وجه الفتاة الجميلة بين ساقيها ، وتمزق صوتها اليائس ، متحسرا

- أهكذا ننتهى ؟!

ظل الفتى النحيف يضحك فى هستيرية ، ويتوجع فى غيظ ، بينما يقلد بعض الأصوات والحركات

- يبدو أننا خدعنا .. لا .. إنه الأب العظيم ..

وجذب سرواله إلى أسفل :

- أنظروا إلى ناره .. لا .. إنه يطهر خطايانا ..

والتقط عودا وأشعل طرفه، هرول إلى الأب العظيم وهو يلوح باللهب.

- أيها الثعلب النتن ، أرنى الآن كيف تقهر اللهب باللهب .

فزعت عينا الأب العظيم وهو يحاوره حول المنضدة .. اعتصر الألم أحشاء الفتى النحيف ، صرخت فى عينيه نظرة غيظ منحور ، سقط ، انطفأ العود ، وظل دخانه يتلوى مع الهواء ..

- آه .. ليتنى أرى ولدى .

زحفت أصابع المرأة الطويلة على الأرض ، تقلصت وتمددت فى استماتة ناحية البرميل .. وتوسلت بآخر خفقة من قلبها المرتجف ..

- يارب .. رحماك بولدى !

أطبقت يد الرجل الطويل على يدها ، تكسرت حشرجة صوته اليائس

- ليتنا .. ذهـ .. بـ .. نا .. به ..

ظل الفتى الجميل يهز صدر الفتاة الجميلة ، وصراخه يتردد مختنقا :

- انتظرى لحظة . لم ينته اللحن بعد !

تراخى شعرها الطويل على كتفيها ، وغطى وجهها .. جمدت البرودة فوران صدرها النابض . تساقطت دموعه عليها .. أرقدها فى حرص منهزم، وتمدد إلى جوارها .. اصطادت عيناه وجه الأب العظيم يرقبهما .. همس الفتى الجميل فى مرارة وأصابعه تخفق بين أوتار الجيتار :

- لقد أضعت فرصتنا !

نشطت حركة الهواء .. عصفت بأغصان الأشجار ، ونفضت عنها أوراقها الجافة ، وأسقطتها ، وظلت تطاردها على الأرض .. تطايرت بأطراف الملابس ، وخصل الشعر ..

أسند الأب العظيم يديه الكبيرتين إلى المنضدة .. هامت نظرته فى سياحة متأنية عند أطراف المكان ، ثم تهادت تمسح العيون الشاخصة ، والأفواه المزمومة ، والأصابع المتقلصة .. مد ذراعيه وشهق نفسا طويلا ، انتشت ملامحه وتألقت عيناه .. هز رأسه وقال بصوت حالم :

- وهكذا ترقدون فى سلام !

تنقل بخطى وئيدة بين المقاعد ، وبين الأجساد ، وفوقها .. وبيده عصاه الطويلة ، يدق بطرفها الأرض ، ويداعب به شعر لحية ، يجس انتفاخ بطن ، ويغلق جفن عين .. توقف عند الجيتار ، حدق فيه بغيظ .. بقر بطنه بطرف عصاه وصاح :

- أتعتقد أنها أحبتك ..؟

هرول فوق الأجساد وهو يضحك فى هستيرية ويلوح بعصاه ..
– أين أنتم الآن .. ؟ أين أيديكم القذرة ، وعوراتكم الدنيئة .. ؟
أين عيونكم البجحة ، وأرواحكم الشريرة .. ؟
لقد احتويتكم جميعا .. هنا فى أمعائى .. فى قذارتى .. وفى نجاستى ..
توقف عند الفتاة السوداء ، مال عليها ، وجذب ثوبها ، وصاح :
– أى جلاد شرس كان يمكنه أن يروض هياجك .. ؟
وقفز إلى الفتى النحيف وظل يدفعه بعصاه ..
– وأى مرجل كان يمكن أن يبرد نهش سعارك .. ؟
اعتمد على عصاه بكلتا يديه ، تمايل بها فى هوادة وهو يتشمم الهواء ، قال فى هيام :
– رائحة أرواحكم تتبخر ، تصعد إلى سماء الرب ، تتضرع شكرا لما فعله الأب العظيم من أجل خلاصها ..
ونظر إلى السماء وطفرت الدموع من عينيه المكدودتين ، وردد بصوت مبحوح :
– أنا الأب العظيم .. أنا الأب العظيم ..
لقد فعلت شيئا من أجلكم .. أما أنتم .. فماذا فعلتم من أجلى ؟!
وانفجر صوت طلقة مفاجئة ..
انتبه الأب العظيم وتلفت .. صهل الحصان وارتمى على الأرض ، تدافعت أقدامه ودار جسده عدة مرات ، استكان فى رجفات متقطعة، همد تماما ..
اقترب الحارس متمهلا من الأب العظيم .. زاغت نظراته فوق الجثث

المبعثرة.. تنقل بينها فى ذهول محموم.. حاصرت عيناه عين الأب العظيم..

قال فى سخرية

- لقد أربكت ملك الحساب ..

تراجع الأب وارتمى على المقعد ..قال الحارس وهو يلوح ببندقيته ناحية الحصان ..

أشفقت عليه مما رأى .. وحتى لا يبقى سوانا ..

انكفأ صدر الأب العظيم على المنضدة .. قال بصوت يائس ..

- تعرف مكان الحقيبة ، اذهب وخذها ..

وضع الحارس يده على ظهر الأب العظيم ، ارتعد فكه بينما يتساءل ..

- ولماذا قتلت أمى ؟

قال الأب العظيم وهو ساهم الوجه ..

- الأب العظيم لا يقتل ..

أسند الحارس كعب بندقيته إلى المنضدة وضحك بصوت خشن ..

- الأب العظيم .. ؟ لقد انتهت اللعبة ، ألم تفق بعد ؟

ثم خبط المنضدة بيده ، وصاح :

- لقد آن لنا أن نتحاسب ..

هم الأب العظيم بالقيام وهو يقول بصوت متماوت :

- لم يعد هناك وقت للحساب يا بنى.. خذ الحقيبة ودعنى أرحل..

دفعه الحارس فى صدره وأجلسه ..

- ولمن تترك أبناءك .. ؟

نكس الأب العظيم رأسه .. غمغم بصوت خافت ..

- عما قريب ألحق بهم ..

نظر الحارس إلى الأكواب .. أخذ كوبا ممتلئا ووضعه أمام الأب العظيم، قال بصوت لزج ..

- ستلحق بهم الآن .. وبنفس الطريقة ..

انتفض الأب العظيم واقفا ، تشنجت ملامحه وهو يزعق ..

- لا .. سأموت عند قبر ولدى .

تراجع الحارس وصوب بندقيته إلى صدر الأب العظيم وصاح ..

- إياك أن تراوغ ..

بكى الأب العظيم وتشنج صدره فى حرقه

- اعطنى فرصة أخيرة .. أرجوك .. قبره لا يبعد كثيرا عن هنا ..

جذب الحارس زناد البندقية إلى الخلف ، وقال فى إصرار :

- اشرب كوبك ..

ركع الأب العظيم على ركبتيه ، وحاول أن يقترب من قدمى الحارس ..

- يمكنك أن تأتى معى.. وهناك سأفعل ما تريد.. أتوسل إليك يا بنى ..

تطاحنت أضراس الحارس وصاح فى غيظ :

- لم تعط أمى فرصتها لكى ترانى .. هيا اشرب كوبك بيدك ، وإلا جعلتك تندم على فوات هذه الفرصة ..

نهض الأب العظيم فى تخاذل ، احتارت نظراته ، ضم كفيه إلى صدره وأغمض عينيه ، وظل يصلى بصوت هامس .. قال الحارس فى سخرية :

-ماذا تقول للرب ..؟ هه .. أتريد أن تحتال عليه أيضا ؟

ارتمى الأب العظيم على المقعد وهو يلهج بصوت متقطع .. استقرت

نظرته على الكوب ، حدق فيه بفزع ، أحاطه بكفيه المرتجفتين ، قربه من فمه، اهتز الكوب وترجرج ، تساقطت الدموع بداخله ، التحمت شفتا الأب العظيم وتشنجتا ، أعاد الكوب إلى مكانه وهو يعتصر عينيه ، ويردد مرعوبا ..

- لا أستطيع .. لا أستطيع ..

هجم الحارس عليه وغرس البندقية في ظهره ، وظل يدفعها ويخمش بها عاموده الفقرى ، تأوه الأب العظيم وحاول أن يفلت .. اختطف الحارس الكوب وسكبه فى فمه .. قاوم الأب العظيم فى استماتة ، انثال بعض الشراب على لحيته وعلى ثيابه .. اختطف الحارس كوبا آخر وسكبه فى فم الأب العظيم ..

استكان الأب العظيم وهو يلهث .. يداه ممدودتان فوق المنضدة ، وعيناه منكسرتان ، ولحيته تقطر شرابا ممزوجا بالعرق ..

هرول الحارس إلى خيمة الأب العظيم ..

نشطت حركة الهواء وتناغم صفيره ، أحس الأب العظيم ببرودته الناعمة ترطب حبات العرق ، المنثالة على وجهه وصدره ، وتخدره ، وتهدهد رأسه وتغلفه بالحرير المعطر .. تحسس بطنه بيديه وابتسم فى مرارة .. تردد همسه خافتا ..

- آن للجرح أن يكوى .. !

أتى من بعيد صوت الكلب الأبيض .. تاهت نظرات الأب العظيم وهى تبحث فى إعياء .. الكلب يدور حول البرميل وينبح . البرميل يهتز ..

قام الأب العظيم وذهب إلى البرميل ، نظر بداخله ، تقابلت نظرته

بنظرة الطفل .. وصاح وهو يمد يديه ..

- أخرجنى يا أبانا ..

طفرت الدموع من عينى الأب العظيم .. انسلخ الصوت من جوفه نازفا ..

- ولدى .. !

شردت نظرته ناحية الخيمة .. ارتعدت يده وهى تداعب شعر الطفل .. مد عنقه بداخل البرميل وقال للطفل :

- ابق هنا .. لا تخرج .. سأعود إليك بعد قليل ، وسنلعب معا بالكرة ، وسنركب الحصان .. ولكن إياك أن تخرج من البرميل .. أفهمتنى .. ؟

أومأ الطفل برأسه ، وجلس فى قاع البرميل ، ووضع حصانه الخشبى على رجليه ..

عاد الأب العظيم وهو يعتصر ألم أمعائه ..

خرج الحارس من الخيمة ثائرا ، ضرب المقاعد بقدميه وصاح وهو يلوح بالحقيبة ..

- أين أخفيت بقية النقود .. ؟

حاول الأب العظيم أن يبتعد عن طريقه ، وهو يتلوى ويصرخ من الألم..

وضع الحارس الحقيبة على المنضدة وفتحها وظل يعد الرزم وهو يهمهم فى غيظ ..

- كم أخذت منها .. هه .. كم أخذت ؟

اقترب الأب العظيم من البندقية وهو يتعثر ويقاوم فى استماتة .. التقطها

بيـدين مرتعـدتين .. التـفت الحارس مفـزوعا .. صـوب الأب العظيم إلى صدره .. و .. وأطلق الرصاص ..

ومن بعيد بدأ جسر الغمام يتداعى ، ويزحف قريبا من الأرض ..

كتله تتدافع وتتداخل وتتلوى ..

تردد بداخل البرميل صوت الطفل ، رفيعا باكيا ..

ظـل يتطـاير مع الهـواء العاصف .. يتـسع .. ويتسع .. حـتى احتـوى المكان !! .

انتهت

كتب للمؤلف

حافة الفردوس - رواية - ط٢ مركز الحضارة العربية ١٩٩٨

ط ١ دار الحرية ١٩٨٤

قطاع بمملكة الفاصوليا - مجموعة قصصية - هيئة الكتاب ١٩٩٥

غزو الأرانب - مجموعة قصصية - هيئة الكتاب ١٩٩٤

العصر الرمادى - رواية - هيئة الكتاب ١٩٩٠

ضحكة الأسد - مجموعة قصصية - هيئة الكتاب ١٩٨٦

الدوران حول السور - مجموعة قصصية - دار الهلال ١٩٨٠

مسافة بين الوجة والقناع - رواية - دار الهلال ١٩٧٨

رائحة الرماد - مجموعة قصصية - دار الحرية ١٩٧٧

تمثال على أعمدة الهواء - مجموعة قصصية - دار العلم ١٩٧٠

تحت الطبع

فرس النبى - رواية

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوولوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخوري
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد فازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محى الدين

قصص قصيرة ..

مطربة الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نعم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البيـــاتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
منيـــا تنادينـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد
في مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد
إذهب قبل أن أبكي	د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمد صدقي الدجاني
اللعبة الأبدية _ (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية	د . على فهمي خشيم
رحلة الكلمات	د . على فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي	د . على فهمي خشيم
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعوبية	سليمان الحكيم
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغني

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
زمن الرواية : صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
البعد الغائب : نظرات في القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
أعلام من الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني	خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د . أحمد الصاوى
رمضان .. زمان	د . أحمد الصاوى
القصص الشعبي في مصر	إعداد خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة في كشف الغمة	
الفاشوش في حكم قراقوش	
الحكمة المدنية لابن المقفع	

فنون ..

ماهي السينما	صلاح أبو سيف
قضايا المونتاج المعاصر	د . عفت عبد العزيز
الصوت والضوضاء	د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

حافة الفردوس

«وقفت ونظرت إلى مسقط الماء
وهو ينسكب فى البحيرة الصافية .
ضحكت والتفتت ناحيته وهى تلهث
. خلعت رداءها وقفزت إلى الماء
وغسطت فيه. خلع ملابسه وقفز
إليها . ظلت تسبح وترشه بالماء،
وتضحك ، وتصيح . حاول أن
يمسكها . حركت قدميها فتطاير
الماء إلى وجهه . التوى وغطس من
تحتها ورفعها حاولت أن تتخلص
منه ولم تستطع . استكانت . وضع
يديه عليها ووضعت يديها عليه ،
وأخذا يهبطان تحت الماء .. !» .

